

كتابى
اندريه موروا
وجوه الحب السبعة
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق : **اندريه موروا**

هــذا الكتاب

● للحب ، فى نظر « أندريه موروا » ، سبعة أقنعة .. أو سبعة وجـوه : فهو تارة عفيف ، وتارة عنيف .. تارة طاهر ، وتارة فاجر .. تارة خيالى ، وتارة مثالى ، وتارة نارى ... إلخ .

وقد تخير موروا – كنموذج لكل وجه أو قناع من أقنعة الحب السبعة – قصة من روائع الأدب الفرنسى الخالدة : فاختار للحب المنطوى على روح « الفروسية » قصة (الأميرة دى كليف) لمدام (دى لافاييت) .. واختار للحب « الرومانتيكى » قصة (جوليا ، أو هيلويز الجديدة) لجان جاك روسو .. وللحب المنطوى على « فرار من الواقع » ، قصة (مدام بوفارى) لجوستاف فلوبير .. وللحب الملتهب ، قصة « الأحمر والأسود » وغيرها من قصص « ستندال » .. وللحب الذى هدفه إرضاء الحواس ، أكثر من قصة من قصص « بلزاك » .. وللحب المناضل ، قصة (علاقات خطرة) للجنرال « دى لاكلو » .. وأخيراً ، اختار موروا كنموذج للحب «الوهمى» قصة (غرام سوان) لـ « مارسيل بروست » ..

١ ـ الحب المنطوى على الفروسية

(الأميرة دى كليف : لمدام لافايت)

ولم يكتف أندريه موروا ، فى تصويره لكل وجه من وجوه الحب السبعة ، بتلخيص القصة الكبرى التى رآها معبرة عن هذا الوجه أو ذاك .. وإنما جعل حديثه عن القصة مزيجاً من التلخيص . والعرض . والتحليل . والتعليق ، والحديث عن مؤلف القصة – واختباراته الخاصة فى الحب ! – ثم الحديث عن تقاليد المجتمع وعن النزعة العاطفية الغالبة على الناس فى العصر الذى عاش فيه وكتب قصته ... إلخ .

فالكتاب يجمع إذن بين السرد القصصى ، والدراسة الأدبية الممتعة – بطريقة « موروا » الخاصة وأسلوبه الشائق – ومن ثم فهو جدير بالمزيد من الأناة و « التوسع » فى تلخيصه .. وعلى هذا أقدم لك فيما يلى الفصل الأول من فصول الكتاب ، وفيه يتحدث المؤلف عن الوجه الأول من وجوه الحب السبعة .. تتبعها الفصول التالية على التوالى ..

١ – أطوار الحب !

● إن الصلة بين المشاعر الإنسانية وبين الأدب ، لأشبه بالصلة بين الحكومة والرأى العام !.. فقوة الحكومة تعتمد ، إلى حد كبير ، على الرأى العام .. وفى الوقت نفسه نجد أن الحكومة هى التى توجه الرأى العام وتؤثر فيه .. وهكذا الحال فى العلاقة المتبادلة بين الأدب ومشاعر الناس : فالمشاعر هى التى توحى بالأدب ، وتلهم الأدباء .. ومن ناحية أخرى فإن الأدب يساهم بنصيب كبير فى توجيه المشاعر ، وتلوينها ، بل و « خلق » مشاعر معينة فى بعض الأحيان !.. ومن هنا يتأثر الحب مثلا ، فى كل زمان ومكان ، بطابع القصص المشهورة التى تروج وتقرأ فيهما !

والغريزة الجنسية – التى هى منبع الشعور بالحب – غريزة ثابتة غير متغيرة ، لا تكاد تختلف بين عنصر وآخر ، وبلد وآخر ، إلا بالقدر الضئيل الذى يختلف فيه جسم الإنسان .. لكن مظاهر هذه الغريزة ، وهى أساليب الحب وألوانه ، تتغير ويطرأ عليها التعديل والتبديل على مر العصور .. وإلا فهل يمكن تصور صورتين لعاطفة واحدة ، تختلفان وتتباينان أكثر مما يختلف حب « كلو » الشهوانى لـ « دافنيس » ، عن حب « مدام دى مورسوف » العفيف لـ « فيلكس دى فاندينيس » ؟.. أو حب « الشيفاليه دى جريو » البسيط الساذج لـ « مانون ليسكو » ، عن الحب الواعى « الحصيف » الذى يكنه أحد أبطال قصة من قصص « ألدوس هكسلى » للبطلة ؟!

وبعبارة أخرى : إن الغريزة الواحدة تنتج – تبعاً لفلسفة كل عصر – رد فعل متغير يناسب العصر ، وفلسفته .. وهدف هذا الكتاب هو معالجة مختلف التطورات والتغيرات التى طرأت على عاطفة الحب كما انعكست على الأدب الفرنسى خلال ثلاثة قرون !

مولد الحب الرومانتيكى

● وأول مايلاحظ أن القدماء لم يجعلوا انفعالات الحب الموضوع الرئيسى لقصصهم ، كما فعلنا نحن فى العصور الحديثة .. صحيح أن بطل ملاحم «هوميروس» كان يثور غضباً إذا خطف أحد «أسيرته»، لكن ثورته تلك كان حافزها الشعور بالكبرياء والعزة ، أكثر منه الشعور بالغيرة !.. وقد كان جمال « هيلين » السبب فى نشوب « حرب طروادة »، ومع ذلك فإن عواطف «هيلين» لا تشغل غير مكان ضئيل من ملحمة « الإلياذة » التى سجلت أحداث تلك الحرب !

وفى « الأوديسة » نرى البطلة « بينيلوبى »[١] زوجة وفية ،

(١) و « بينيلوبى » هى زوجة البطل اليونانى فى حرب طروادة ، المدعو «أوديسيوس» – أو « عولس » – وقد بلغ من وفائها له أثناء غيبته التى طالت عشرين عاماً ، أنها رفضت جميع عروض الزواج التى قدمت إليها خلالها ، رغم يأس الجميع من عودته .. وحين ألح عليها الخاطبون ، تحايلت لإرضائهم زاعمة أنها سوف تختار أحدهم حين تنتهى من قطعة قماش كانت تطرزها . لكنها لم تنته منها أبداً ، لأنها كانت تفك كل ليلة ما تطرزه طوال النهار ! .. وفى نهاية العشرين عاماً ، كوفىء صبرها .. بعودة زوجها إليها !

أكثر منها عاشقة .. وقد كان الحب الذى يخرج عن نطاق الرغبة الجنسية ، يعتبر فى ذلك العصر نوعاً من الجنون ! .. لذلك لم يجرؤ أديب من أدباء اليونان القدامى – عدا أفلاطون – على أن يتحدث فى أدبه عن الحب العذرى ، الذى يبلغ من عمقه أنه يتطلب الطهر الكامل والعفة المطلقة !

وفى أيام الرومان ازدهر الزنا بينهم ، لكنه كان يعتبر جريمة، وليس مأساة !.. وإذا كان شعراؤهم ، وعلى رأسهم « فيرجيل » قد وصفوا ألواناً من عذاب الحب الطاهر ، فإن شاعرهم « أوفيد » قد أشبع هذا اللون من الحب سخرية فى كتابه المشهور « فن الحب» ؟ (الذى قدم « كتابى » صفحات منه فى العدد ٢٨) .

والواقع إن الحب كعاطفة معقدة – أو الحب الملتهب كما أطلق عليه باسكال – لم يعرف إلا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، حين ترعرع فى أوربا ، أولا فى بلاط الأمراء وأجوائهم الشاعرية ، ثم فى غراميات الفرسان والمغامرين .. فلماذا بدأ الناس فى ذلك العصر يسبغون كل هذه الأهمية على « الانفعالات العاطفية والروحية » التى تصاحب الرغبة الجنسية ؟

الوثنية لم تكن تفرض الإخلاص والعفة !

لأن المسيحية أحدثت انقلاباً فى هذا الميدان .. فقد كان الزواج قبل ذلك – عند القدماء – مجرد « عقد منفعة » لا يفرض

على الزوج أن يكون مخلصاً لزوجته . وبالتالى لا يخلق فى أعماقه صراعاً داخلياً .. كما أن الوثنية لم تكن تفرض العفة على المرأة ، أو تكبلها بالقيود والأغلال الخلقية الشديدة .. فلما وجدت هذه الأغلال ، ضاعفت من حدة العاطفة الروحية – أى الحب – عند كل من الرجل والمرأة !.. يضاف إلى هذين العاملين عامل ثالث بالغ الأهمية . هو ترجمة الشعر العربى « العذرى » إلى اللغة الفرنسية ، ثم الإنجليزية ، وما ترتب على ذلك من الترويج للحب المجرد عن صلة الجسد ..

وأخيراً فإن الحروب الصليبية قد أعانت على ازدهار «الحب» ، لأنها أوجدت لقصصه جمهوراً كبيراً من القراء ، هم الحجاج الذين أثار خيالهم حرمانهم من النساء وبعدهم عن مجتمعاتهن ، فوجدوا متعتهم فى قراءة قصص الحب .. وفى الوقت نفسه أقبلت النساء فى بلادهن على قراءة القصص بعد أن ارتفع مستوى تعليمهن ومركزهن فى المجتمع . وأجبرهن سفر رجالهن إلى ميادين الحرب على قتل أوقات فراغهن فى القراءة .. وفى الحب !

فرسان المائدة المستديرة !

● ومن جهة أخرى . ففى غيبة المحاربين فى تلك الحروب لم يبق من الرجال فى أرض الوطن . وفى قصور أولئك الغائبين ، غير خدمهم المخلصين « اليافعين » الذين كان الواحد منهم بمثابة التابع ،

أو « الوصيف » لسيده وسيدته على السواء . فلم يكن يجرؤ على أن يولى السيدة من الحب غير لونه الساذج المنطوى على الاحترام . والمنزه عن كل مطمع دنس .. وانتشرت يومئذ قصص الحب الذى تغلب عليه نزعة الفروسية – مثل قصة « تريستان وايزولت » وقصص فرسان المائدة المستديرة ، وأشهرها قصة الفارس «لانسلو» والملكة « جينفير » ، زوجة الملك أرثر .. وقد مهدت هذه القصص أذهان النساء لتطور غير عادى فى مصائرهن وأقدارهن ، فقد رأين أنفسهن فجأة هدفاً للمغازلة الرقيقة من جانب الرجل . ولسن موضع اشتهائه فحسب ! وبفضل هذه القصص صار فى وسعهن أن يفرضن على الرجال معاملتهن على أساس من الاحترام الذى يوحى به الحب الدائم المستقر – وهى عاطفة ليست من شيمة الرجال فى العادة ! – فباتت كل امرأة تتطلب من رجلها أن يكون من طراز « لانسلو » أو « تريستان » . وإن لم يمنعها ذلك من أن تستسلم للعاشق الماجن الذى من طراز « دون جوان » ، الذى كان يذيقها الألم فيملأ عليها بذلك حياتها !.. ولكن لنعود من جديد إلى « لانسلو » كى يحميها من نفسها ويضحى بسعادته لينسيها حب دون جوان !.. وهكذا كانت قصص الفروسية تحيط نساء ذلك العصر بجو حافل بأشباه « لانسلو » من الفرسان الشائقين الذين تنشرح لهم صدورهن ويرضون غرورهن !

ونستطيع أن ندرك مدى التطور الذى طرأ على شخصية الرجل

فى الحياة الواقعية – نتيجة لشيوع قصص الحب المنطوى على الفروسية، تلك القصص التى خلقت شخصية «العاشق الشاعرى !» – نستطيع أن ندرك مدى ذلك التطور إذا تذكرنا أن الرجال الذين أصابهم هـذا التطور كانوا من « المحاربين » ، ذوى الطبيعة الاستبدادية العنيفة ، الذين لابد قد وجدوا – فى البداية – كثيراً من المذلة فى خضوعهم لنزوات امرأة واحترامهم لمشيئتها !.. ومن أطرف أمثلة ذلك أن « إدوارد الثالث » ملك انجلترا فى ذلك العصر، الذى كان معروفاً بالقسوة والصرامة فى أساليب حكمه ، صار بتأثير قصص الفروسية عاشقاً وديعاً خجولا – من طراز عشاق القرن السابع عشر – يتألم فى صمت حين تهجره المرأة التى يحبها ، فلا يستغل سطوته لإعادتها إليه، رغم أنها امرأة عزلاء .. وهو ملك!

هكذا لا نملك إلا أن نحس بقوة سلطان الأدب ، الذى فرض نفسه على تلك النفس البدائية فأخضعها وهذب من حواشيها !

وكل حضارة إنما تنبع عن الشعائر والمراسم التى تفرض على الناس، فليس ثمة وسيلة لقهر البربرية الكامنة فى قلب الإنسان سوى تكبيلها بالقواعد الصارمة .. وهذا ما فعله الحب الشاعرى العفيف، فإن التجارب والمغامرات التى تفرضها على الرجل امرأة أحلامه ، والمبارزات التى يشتبك فيها أمام عينيها من أجلها ، والأغانى التى يلحنها غزلا فيها ، تنتهى بأن تلعب فى حياته دوراً هاماً يجعل الرغبة الجسدية تتراجع عنده إلى المرتبة الثانوية ، بل وتنسى أحياناً !..

وقد أخضعت الفروسية فى العالم المسيحى كلا من الحب والحرب ، فكانت هى والحب الشاعرى من أقوى عوامل نمو المدنية .

٢ – انهيار الحب الرومانتيكى .. ثم بعثه

● وقد عانى الحب الشاعرى العفيف خلال المدة بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر عدة هزات وأزمات :

١ – فعندما كثر العشاق العذريون ، وصار حبهم هو الطابع السائد، مله الناس وبدأوا يسخرون منه !.. صار « دون كيشوت » رمزاً مألوفاً لمغامرات الفروسية ، وكلنا يعلم مبلغ الهزء والاستخفاف اللذين تقابل بهما شخصية هذا الفارس الأبله !

٢ – ولكى يتسع الوقت لتحليل العواطف ، والتحدث عنها ، ولكى يكون الغزو الغرامى بطيئاً ومدروساً ، وبالتالى جديراً بأن يروى ، ينبغى أن يلتقى الرجل والمرأة فى وقت الفراغ ، أى فى فسحة من الزمن .. والحضارة المستقرة ، كما ينبغى أن توفر للناس المأوى ، كذلك ينبغى أن تتيح لهم الوقت الكافى كى يحبوا .. أى كى يحلموا !

وقد حدث فى مستهل القرن الرابع عشر أن بدأت حضارة العصور الوسطى العظيمة فى الانهيار .. ولم تكن حضارة الإقطاع قد نضجت واكتملت بعد . كانت الإنسانية تمر فى ذلك العصر برحلة طويلة الأمـد من العنف ، والفوضى ، وعدم الاستقرار

– وهى المرحلة التى تخللتها حرب المائة عام ، والحروب الأهلية ، والدينية المختلفة – فلم تترك هـذه الحروب للعشاق وقتاً كافياً يستمتعون فيه بالهوى العفيف الطويل الأجل ، وإنما صار المجال مجال غراميات قصيرة ضارية ، أقرب إلى الشهوة منها إلى الحب .. وقد تركت هذه الغراميات طابعها فى قصص «بوكاشيو» (الإيطالى) ، و «رابليه» (الفرنسى) ، و «شوسر» (الإنجليزى) .. إلخ .

الريف لا يوحى بالشعر والهوى !

وخلال هذه «النكسة» فى المشاعر العاطفية ، لم تجد النساء ملجأ عاطفياً لهن سوى الشعر ، وبخاصة الشعر الريفى .. ومن المفارقات الملحوظة فى هذا الصدد ، أن المتتبع لإنتاج الشعراء والروائيين منذ القدم (من «فيرجيل» إلى «شكسبير» ، ومن «رونسار» إلى «راكان» ، ومن «روسو» إلى «تولستوى») يلمس فى هـذا الإنتاج تعبيراً عن ميل البشر المستمر إلى أن يحلموا بعصر ذهبى موشى بالخيال ، يستسلم فيه الرعاة والراعيات إلى عواطفهم الفطرية ، فى جو من جمال الطبيعة الساحر .. وليس المرء فى حاجة إلى أكثر من أن يعيش زمناً فى الريف ، ليدرك أن الطبيعة هى على العكس مما يتصور هؤلاء : قاسية ، واقعية ، أبعد ما تكون عن أن تصلح كجو مناسب للهوى والخيال .. وأن حياة الرعاة وسط قطعـان الماشية ، هى آخر لون من ألوان الحياة إيحاء بالمغامرات العاطفية ..

بل إن الباحث ليتبين أن أرق وأبلغ أبيات الشعر العاطفى «الريفى» ، نظمها شعراء المدن والحضر !

٣ – وأخيراً ، فى بداية القرن السابع عشر – خلال حكم الملك هنرى الرابع – عاد النظام والاستقرار يستتبان فى فرنسا .. فبعثت فيها العواطف العفيفة من فورها .. وعلى أثر إخمـاد ثورة (الفروند) – التى كانت آخر صحوة للإقطاع المحتضر – شهد القرن السابع عشر انتقال المجـال الحيوى لنشاط النبلاء واهتمامهم ، من الحرب والسياسة .. إلى الصالونات !.. واضطر العظماء والبارزون من شخصيات عصر النهضة إلى قبول الخضوع لسلطة الدولة ، أى الملك ، بعد أن كان كل منهم حاكماً بأمره فى إقطاعيته ! ومن الخطأ تصور أن هذا التطور قد تم بسهولة ويسر .. ولعل مذكرات الكردينال دى ريتز من أبلغ صفحات الأدب الذى يعطينـا فكرة واضحة عن شخصيات أولئك الإقطاعيين من جماعة (الفروند) ، وفى مقدمتهم : لاروشفوكو ، مدام دى لونجفيل ،لاجراند دموازيل ، لوزان .. وغيرهم من «الحيوانات البشرية» العظيمة الجميلة ، التى يصعب ترويضها ، وقد صدق الدوق «سان سيمون» حين وصفهم فى مذكراته بقوله : «إن كل ما يصلح له هؤلاء النبلاء ، هو أن يسعوا إلى حتفهم بأنفسهم» !

٤ آلاف قتيل فى المبارزات

● وهل أدل على ذلك من أن أربعة آلاف منهم لقوا حتفهم فى المبارزات ، أثناء حكم لويس الرابع عشر ؟!.. وأن هـذا الرقم ارتفع إلى سبعة آلاف فيما بين عامى ١٥٤٩ و ١٦٠٧ ؟.. ذلك أنهم عندما اضطر الملك – كى يعيد النظام والأمن إلى ربوع البلاد – إلى منعهم من حسم منازعاتهم الخاصة بالاشتباك فى حروب بين جيوشهم المسلحة .. وعندما لجأ إلى « حبسهم » فى نطاق البلاط والصالونات ، التى كانت بالنسبة لهم أشبه بالأقفاص ، عمـدوا إلى تحطيم قضبان هذه « السجون » بابتكار تقليد المبارزة بالسيف ! .. ومن هنا نشأت ضرورة فرض « شكليات » خاصة ، مغالى فيها ، عليهم . شكليات بلغت حد الحذلقة ، فبات طابعهم الغالب : « الأدب المتزمت فى الحركات والألفاظ .. والتوحش الساذج فى الأخلاق » !

وقد كان المثل الأعلى للرجل فى القرن السابع عشر هو «العظمة» حتى لتجد هذه الصفة تلصق بكل شىء وتتكرر فى كل صفحة تقريباً من صفحات قصة « الأميرة دى كليف » ، التى نلخصها فيما يلى .. وكان الناس فى ذلك العصر متعطشين للمجد ، وكانت قوة العواطف الملتهبة تبدو فى نظرهم عنواناً لهذا المجـد . كانوا يعتقدون أن الإنسان الكريم النفس ، النبيل المحتد ، ينبغى أن يحب

بانفعال وعنف !.. كان الكل يكون بسهولة عجيبة . وتجرى على ألسنتهم وفى كتاباتهم الإشارة فى كل مناسبة إلى « أنهار العبرات والدموع ! » .. وعنـد موت « تورين » يبكى المارة جميعاً فى الطرقات . وإذا كان أعظم كتاب ذلك العصر – مثل راسين ، ومدام دى لافاييت – يتحدثون عن هـذه الانفعالات بلهجة متحفظة وتعبيرات متواضعة ، فإن هذا التواضع يزيد تلك المشاعر جمالا ، لأنه يسيطر على عواطف أقوى وأعنف .. أو بعبارة أخرى أن تلك الأعمـال الأدبية الكلاسيكية أشبه بعاصفة أو دوامة من العواطف مخففة الوقع ، مهذبة الحواشى إلى الحد اللائق ..

دستور الحب !

● وقرب منتصف القرن السابع عشر عاش فى باريس جيل من الأقوياء ذوى الطبائع العنيفة ، الذين فرض عليهم طراز من الحياة لا يسمح لهم بإطلاق سراح عواطفهم ، والإفصاح عنها بالأفعال .. فلماذا كان أولئك الأسرى غير المروضين يطالعون ؟..إنهم لينشدون فى الكتب تنفيساً عن الأفعال « العظيمة » والانفعالات العظيمة التى تأباها عليهم الحياة الآن .. وهكذا ، تعود « مودة » قصص الغرام المنطوى على الفروسية .. حتى لنجد « مدام دى سيفينييه » ، رغم كل اتزانها ، تطالع قصة من هـذا اللون هى قصة « سيروس العظيم » .. بل وتقول فى تقريظها : « إن جمال العواطف ، وعنف

الرغبات ، وعظمة الأحداث ، وتتابع المبارزات الرائعة على نسق يقرب من الإعجاز .. كل ذلك يحملنى على أجنحته بعيداً إلى دنيا الخيال والأحلام ، كما لو كنت صبية صغيرة » !

وقد شغفت أوربا بأسرها يومئذ بقصة أونوريه دورفيه الريفية المشهورة «أستريه» ، التى كتبها فى خمسة آلاف صفحة – استغرقت كتابتها منه أربعة عشر عاماً ! – وقد أعاد الكثيرون من الفرنسيين أيامئذ قراءتها المرة بعد المرة حتى حفظوا أدق دقائقها ، كما يحفظ المتدينون التوراة !.. والقصة تصور غرام الراعية « أستريه » – نسبة إلى الربة أستريه ابنة جوبيتر – والفتى « سيلادون » ، الذى اعتبرته فرنسا يومئذ نموذجاً للعاشق المثالى .. وكان دستور سيلادون فى الحب هو دستور الهوى الشاعرى العفيف ، ويتلخص فى ثمانى مواد :

١ – كن مفرطاً فى حبك .

٢ – لا تطو قلبك على عاطفة أخرى ملتهبة غير هذا الحب .

٣ – أحبب امرأة واحدة فقط .

٤ – فليكن همك الأوحد إسعاد المرأة التى تحبها .

٥ – دافع عن محبوبتك ضد كل أذى أو عدوان .

٦ – انظر إليها باعتبارها كاملة فى كل الصفات .

٧ – ولا تكن لك إرادة غير إرادتها .

٨ – ولتعد بأن تظل مقيماً على حبها على الدوام !

وعاش المجتمع كله وفق هذا الدستور .. كان هدف الجميع أن يقوموا بجلائل الأعمال من أجل المرأة التى يحبون ، ويعودوا من المعركة ظافرين كى يفوزوا بالمرأة التى يحبون .. وحرص أشهر الرجال وأحكم الحكماء على أن يجعلوا من الحب « واجباً » ، متبعين قول باسكال : « إن الحب لا يكون جميلا بغير إفراط .. فالذى لا يحب بإفراط ، لا يحب حباً كافياً ! » وكانت عقيدتهم هذه فى الحب تنطوى على شىء من القداسة : فالمرء ينبغى أن يضحى بكل شىء من أجل الحب .. ويمرض من فرط الحب .. بل يموت – فخوراً – من الحب !.. وبالاختصار ، فإن البطولة المثالية حين عجزت عن الإفصاح عن نفسها بالتفوق فى الحرب ، وجدت ملجأها فى الحب !

لكن مثل هذه العواطف السامية تستمد قيمتها الكبرى من قدرتها ، فإذا شاعت فقدت أكثر قيمتها .. ففى وسعنا أن نقبل من « باسكال » أو « لاروشفوكو » أن يحب على هذا النمط ، أما إذا غدا العنف فى الحب « قاعدة » ، فإن الأمر يبدأ فى أن يصبح باعثاً على السخرية .. وهل يمكن أن يكون هذا الحب الذى يشغل الإنسان مدى الحياة ، إلا « لعبة » ؟.. لقد قيل عن الشيفالييه دى سيفينييه ، إن « أمله الوحيد كان أن يموت من حب لم يشعر به ! » .. وقد كان الإخلاص للمعشوقة إلى حد التفانى أمراً رائعاً عندما كان يوحى بجلائل الأعمال ، لكن الحب إذا استغرق من الرجل كل

كيانه ، سرعان ما يصبح منافياً للروح الاجتماعية .. والحال يحدث رد الفعل فيوقع المجتمع عقابه الصارم بمثل هذا العاشق ، بالاستهزاء به !

وهكذا نرى « موليير » يسخر من هذه المغالاة ، التى تلبس الرجال العاديين أثواب الأبطال .. ويأتى « لاروشفوكو » فيحلل العواطف ، ليجد فيها رواسب من حب الذات !.. وبتأثير هذين الواقعيين وأمثالهما ، « ينتى » الذوق العام ، فتسخر الطبقة المتوسطة « البورجوازية » من طراز ذلك العاشق الخيالى .. كما يسخر منه كل « رجل أمين » يكره التظاهر بحب أقوى من الحب الذى يشعر به بالفعل !

حتى النساء ، ضقن ذرعاً بطراز العاشق الذى تغالى فى احترامهن !.. وصرن يرددن فى لهجة التذمر : « آه ، لماذا لا يكون أجرأ قليلا من ذلك » ؟

وهكذا يكتمل رد الفعل ، معلناً مولد اللون التالى من ألوان الحب : الحب الرومانتيكى .. الذى يتطور فى القرن الثامن عشر إلى الحب الداعر !

ولكن قبل أن يختفى ذلك الحب الشاعرى المنطوى على الفروسية ، ينتج درته الخالدة : قصة « الأميرة دى كليف » . وهذه القصة تكاد تشبه المعجزة ، لأنها تحتفظ بتوازن مثالى بين قوة العواطف ، واعتدال لهجتها .. وأن المدنية الفرنسية لتدين بمظهر من أعظم

مظاهرها – وهو فن تحليل العواطف – للمرأة التى كتبت هذه القصة الخالدة .. فلئن كانت اللغة الفرنسية لا تجارى فى دقة وجمال تصويرها لأرق ظلال الحب .. ولئن كان حوار الحب قد أصبح فى فرنسا أعذب وأبرع الفنون على الإطلاق .. فإن جانباً كبيراً من هذا الفضل يرجع إلى هذه المرأة الحاذقة ، الحكيمة ، المتواضعة ، التى نجحت – دون سخرية ودون مغالاة – فى العودة بفن القصة الطويلة إلى المجال الواقعى .. والتى أثبتت أن جمال وحرارة أقوى عاطفة ، يمكن تصويرهما بأبسط لغة .

وهذه المرأة التى أعنيها .. هى « مدام دى لافاييت » .

٢ – المؤلفة الموهوبة

● كانت «مدام لافاييت» تعرف قبل زواجها باسم «مارى مادلين دى لافيرن » . ترملت أمها فى شبابها ، فتزوجت من الشفالييه رينو دى سيفينييه – الذى أنجبت أسرته الأديبة الفذة مدام دى سيفينييه – وهكذا نشأت رابطة القربى بين أشهر أديبتين فى القرن السابع عشر !

وقد تلقت مارى من التعليم أقصى ما كانت تتلقاه الفتيات فى عصرها .. ثم تتلمذت – مثل مدام دى سيفينييه أيضاً – على الشاعر الأديب « ميناج » ، فعلمها اللغة اللاتينية ، التى أكسبتها طلاوة الأسلوب وجمال التعبير .. وحين قدمت إلى المجتمع ، حسب تقاليد

عصرها . ظفرت بإعجاب الرجال .. وعاشت فترة من الزمن حرة طليقة . ورغم ذلك فقد ردت « الكردينال دى ريتز » خائباً حين حاول مغازلتها وخطب ودها ! .. وعندما بلغت الثانية والعشرين تزوجت – باختيارها – الكونت دى لافاييت ، وهو نبيل غبى كان يعجز عن مجاراتها فى الحديث والمجتمعات ، وهى الأديبة اللامعة الذكاء ، الجذابة الحديث .. فلم يكن يجد بدأ من أن يلوذ بالصمت !

وطغت شخصية الزوجة على شخصية زوجها . فصح فيه وصف « لابروبير » للأزواج المغمورين : « هناك نساء بطمس ، بل يدفن أزواجهن . إلى حد إغفال ذكرهم فى المجتمع . بحيث يتساءل الناس عن الزوج منهم : « أهو ما زال حياً ؟ أم أنه قد مات ؟ » .. وبحيث تقتصر وظيفته فى الأسرة على التزام الصمت الخجول والانقياد وراء إرادة زوجته .. ولولا عجزه عن الحمل والولادة لقلنا : إنه الزوجة وهى الزوج » !

وبقدر تدله الكونت فى حب زوجته . لم تكن هى تحبه على الإطلاق .. بحيث يغلب على الظن أنها تزوجته بدافع المنفعة . تأميناً لمركزها الاجتماعى ! .. وفعلا لم يكد يمضى زمن حتى تركته فى قصره الريفى وعادت إلى باريس . حيث عاشت منفصلة عنه ، غير شاعرة بوجوده . حتى مات سنة ١٦٨٣ ، بعد ثمانية وعشرين عاماً من زواجهما !

وفى باريس اتصلت رابطة الصداقة المتينة بين الزوجة وبين شقيقة زوجة الملك لويس الرابع عشر . فعاشت ترتع معها فى بلاطه زمناً .. حتى ماتت الأخيرة ، فهجرت «مدام دى لافاييت» البلاط واعتزلت حياة الصالونات الصاخبة .. ثم عكفت فى عزلتها على تأليف القصص ، مستعينة على ذلك بأسلوبها الأدبى الرصين ، وطبيعتها الحالمة ، ورقتها العاطفية .

وفى هذه الأثناء تعرفت إلى الأديب الفرنسى الكبير «لاروشفوكو» الذى اشتهر فى شبابه بمغامراته الغرامية والسياسية ، التى كان منها إقدامه على خطف الملكة « آن » ملكة النمسا وإحدى وصيفاتها أثناء نزولها فى ضيافة لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو !.. كما كان من مغامراته غرامه بالدوقة « دى لونجفيل » ، وهو الغرام الذى أصيب من جرائه برصاصة فى رأسه كادت تفقده بصره ، وخلفت فيه منذ ذلك الوقت عاهة مستديمة . ورغم ذلك فقد خانته المرأة فى النهاية !!

وعلى أثر صدور العفو العام عن جريمة اختطاف الملكة . اتخذ لاروشفوكو لنفسه منفى اختيارياً فى قصره الريفى ، حيث عاش فترة من الوقت مضمد الوجه . يرتدى نظارة سوداء على عينيه المصابتين ..لكنه عاد إلى باريس بعد وفاة الوزير «مازاران» وافتتح فيها من جديد قصره الفاخر الواقع على ضفة السين – وكان يومئذ

فى الثامنة والأربعين – وجعل يقضى أوقاته متنقلا بين صالونات الأديبات الجميلات ، يؤلف مع واحدة أناشيد الغزل ، ويؤلف مع الأخرى عبارات الحكمة والأمثال المأثورة .. وأشيع وقتئذ أنه صار عشيقاً لمدام دى لافاييت ، لكن إحدى الموثوق برواياتهن نفت ذلك، جازمة بأن « العلاقات بينهما ظلت شريفة لا تتعدى الصداقة .. فإن تمسك الاثنين بالدين قد قص أجنحة الحب ! »

ورغم ذلك فقد ظل الأديب الكبير يغادر قصره كل يوم كى يزور صديقته فى قصرها بشارع « فواجيرار » . وكانت فى القصر حديقة جميلة تتوسطها نافورة ، قالت عنها مدام دى سيفينيه : « إنها أجمل بقعة فى باريس يزدهر فيها الفكر » ، وكثيراً ما سهر فيها ثلاثتهم فى ليالى الصيف إلى ساعة متأخرة من الليل .. واشترك الصديقان فى تأليف رواية قال عنها الناقد الشهير (باسى) : « من حسن الحظ أن مسيو لاروشفوكو ومدام دى لافاييت قد جاوزا ربيع العمر ، وإلا لاشتركا فى عمل أمور أخرى معاً غير التأليف ، وكنا نحن حرمنا من كتابهما الرائع ! »

واسترجع الاثنان ماضيهما فى ذاكرتيهما ، فبعث هو فى ذاكرته غراميات شبابه .. وبعثت هى غراميات « المدموازيل مارى دى لافيرن » – الفتاة التى كانتها ! – وهكذا حلقت روحاهما العجوزان فى سماء الخيال عائدتين بصاحبيهما إلى ربيع الحياة الجميل ،

قبل أن يلتقيا ويتعارفا .. وكانت تلك بذرة قصة «مدام دى كليف» – التى سنلخصها فيما يلى – والتى لم تستطع مؤلفتها ، أو لعلها لم ترد ، إخفاء التشابه الكبير بين بطلتها وبينها .. ثم بين بطلها ومسيو « لاروشفوكو ! »

٣ – القصة

● نحن فى فرنسا فى عهد الملك هنرى الثانى ، وفى بلاطه .. حيث يتم الاتفاق على زواج « الأمير دى كليف » من « المدموازيل دى شارتر » ، وهى فتاة ذات جمال ممتاز وخلق ممتاز ، لقنتها أمها آداب الفضيلة وعلمتها واجبات المرأة المثالية .. كانت تروى لها قصص الحب الواقعية وتظهر لها ما فيها من خير وشر ، ومساوئ ومحاسن ، وأمن ومخاطر .. وتقص عليها أمثلة من خداع الرجال وخياناتهم ، وأمثلة من الفواجع العائلية التى كان سببها الحب غير المشروع ، والعشق الحرام .. ثم تقارن بينها وبين الهناء المقيم الذى يسود بيت المرأة الفاضلة ، وتخلص من ذلك إلى الإشادة بمدى رفعة الشأن والكرامة التى تكفلها الفضيلة للمرأة ذات الجمال والحسب ..

وهكذا لم يكد يتم الاتفاق على تزويج الفتاة من الأمير حتى أنتجت تعاليم الأم ثمارها ، فنظرت الزوجة إلى زوجها نظرة تقدير واحترام ، وثقة فى المستقبل ، وعزم على الإخلاص والوفاء له .. ولم تكن الغريرة قد جربت الحب ، فخيل إليها أنها أحبت زوجها ،

بينما هى لم تحبه على الإطلاق !.. لكن الحقيقة لم تخف على الزوج المجرب ، فأدركها منذ البداية .. وأحزنه أن لا تتجاوز عواطف زوجته نحوه حد التبجيل والعرفان بالجميل ، فكان يعاتبها فى رفق ولين – بين الحين والحين – قائلا لها : « هل كان يمكن أن لا أكون سعيداً معك ؟ ومع ذلك فالحقيقة أننى غير سعيد .. إنك لا تشعرين نحوى بغير العطف – الذى لا يكفينى ! – وعاطفتى المتقدة نحوك لا تلمس من قلبك وحسك أكثر مما لو كنت قد تزوجت منك طمعاً فى مالك ، وليس فى جمالك ! »

فتجيبه هى : «إن اتهامك لى ظالم .. فلست أفهم فيم تطمع منى فوق ما أعطيك !؟ بل يبدو لى أن صلتنا لا تسمح لى بإعطائك أكثر» ..

– إنى لا أظفر منك بحبك ولا حتى بميلك .. ووجودى لا يثير بهجتك ولا انفعالك !

– لا أحسبك تشك فى أنى أسر برؤيتك ، بل ويحمر وجهى أحياناً حين نلتقى ، مما هو كفيل بإقناعك إن مرآك يثير انفعالى حقاً ، لا وهماً !

– لن يخدعنى احمرار وجهك ، فهو لا ينبع من قلبك !

ورغم ذلك فإن شكوكه تشعل حبه أكثر مما تطفئه !.. ويستمران فى حياتهما المشتركة ، لكنه لا يحس بأنه سعيد ، السعادة الحقة ؛ وإنما تظل تشوب هناءه مرارة نفسية مزمنة !

● وبينما هما على هذه الحال ، يتدخل القدر .. فتلتقى الزوجة فى حفلة ساهرة بالرجل ذى الشخصية الخلابة « مسيو دى نيمور » زهرة المجتمع الباريسى وأكثر رجاله « رجولة » وإغراء .. فيعلق به قلب « مدام دى كليف » وتوليه من النظرة الأولى حباً لم تكن تحسب نفسها قديرة عليه !.. تحبه لكنها تأبى الاعتراف لنفسها بهذا الحب !.. ويحبها هو بدوره ، وفى سره ، نفس الحب الصامت المكتوم – فإنه يكتم حبه عن الجميع ، وعنها هى فى مقدمة الجميع ! – ولولا ما يمدها به حبها من إحساس مرهف ، لتعذر عليها أن تتبين وتتابع نمو هذا الحب فى قلبه ، ثم فى حركاته .. فتصرفاته !

لكن شخصاً آخر يحس من فوره بسعى الحب الحثيث فى القلبين المغلقين .. وهذا الشخص هو الأم – التى تفهم فى العادة هذه الأمور بوحى من غريزتها ، فيتحطم قلبها أو تطير فرحاً ، وفقاً لطبيعة خلقها وتربيتها ! – لكن « مدام دى شارتر » من الفريق الأول ، فتراها وهى على فراش الموت تفاتح ابنتها فى الأمر :

« إنك تميلين إلى مسيو دى نيمور .. لست أطلب منك اعترافاً بذلك ، فما عدت أستطيع الاعتماد على صراحتك كى أرشدك إلى الصواب .. ولقد لحظت هذا الميل من جانبك منذ زمن ، لكنى آثرت عدم مفاتحتك فى الأمر كى لا أنبهك إليه ، إن كنت غافلة عنه !.. أما الآن فأحسبك قد تنبهت لكل شىء .. إنك يا ابنتى على

حافة الهاوية ، وسوف يحوجك الأمر إلى مجهود جبار وإجراءات عنيفة كى تنقذى نفسك من التردى فيها !.. فكرى فيما أنت مدينة به لزوجك ، وما أنت مدينة به لنفسك ، واعلمى أنك توشكين أن تفقدى السمعة الكريمة التى اكتسبتها ، والتى طالما تمنيتها لك فى لهفة .. فتذرعى بالقوة والشجاعة يا بنيتى .. ابتعدى عن محيط هذا الرجل .. اجعلى زوجك يأخذك بعيداً !.. لا تخشى أو ترهبى اتخاذ أى إجراء صارم أو قاس فى سبيل النجاة من الخطر المحيق بك .. فمهما بدا لك الإجراء أليماً فى البداية ، فإنه لن يلبث أن يصير فى النهاية أرحم من شرور الحب المحرم ، الذى لو تورطت فيه لاستقبلت أنا الموت مرحبة مغتبطة كى لا أعيش وأراك ملوثة !» .

٭ ٭ ٭

● ويفلح مسيو نيمور فى جعل « مدام دى كليف » تفهم أنه يحبها !.. ويصل إلى هدفه هذا بغير أن يتفوه بكلمة يمكن أن تصلمها .. بل إنه يقول لها على العكس : « إن النساء يحكمن على مبلغ حب الرجل لهن بمقدار تفانيه فى إظهار شعوره نحوهن ومغالاته فى إدخال السرور إلى قلوبهن ، وملازمته إياهن فى الغدو والرواح .. ولكن هذه مهمة سهلة للغاية ، لاسيما إذا كن جميلات ، أما المهمة العسيرة حقاً فهى حرمان الرجل نفسه من مسرة ملازمتهن ، وتجنبه الاقتراب منهن خشية عيون الناس ، بل خشية أن يلحظن هن أنفسهن شعور الرجل نحوهن » !

وتفهم « مدام دى كليف » أنه يقصدها بكلامه ، لكنها تخفى عنه أنها فهمت ، وإن كانت كلماته تثير فى نفسها انفعالا حاداً .. فإن أشد الكلمات غموضاً ، حين تصدر من الشخص الذى تحبه ، تحدث من الاضطراب أضعاف ما تحدثه المفاتحة الصريحة من شخص لا تحبه !

لكنها رغم ذلك تفضح مشاعرها بتصرفات صغيرة .. فبينما يركض مسيو دى نيمور بجواده إلى جانب الملك ، يسقط من على ظهر الجواد فيصاب إصابة يسيرة ، وإذ ذاك يبدو الانزعاج على وجه المرأة العاشقة ، فيدرك الرجل فوراً أنها تحبه بقدر ما يحبها !!. أما هى فيحنقها من نفسها أنها قد أفصحت عن سرها الدفين ، فتطلب إلى زوجها أن يرحلا إلى الريف ، بحجة أنها بحاجة إلى تغيير الهواء لأن صحتها ليست على ما تروم !

لكنه لا يتلقى كلامها جاداً ، إذ يراها أتم ما تكون صحة ونضارة ! .. وإذ ذاك لا ترى مفراً من أن تواجهه بقولها : « لا تضطرنى إلى الاعتراف لك بشىء ليست لدى القوة على الاعتراف به ، رغم أننى حاولت ذلك عدة مرات .. وينبغى أن تذكر أنه ليس مما يقتضيه الحذر أن تعرض امرأة فى سنى لمغريات بطانة البلاط ! »

فصاح بها مسيو دى كليف : « ماذا تقصدين يا سيدتى ؟..

لست أجرؤ على التصريح لك بما فهمته من كلامك ، خشية أن أهينك بتصريحى ! »

وعند هذا ارتمت على ركبتيها أمام قدميه ، وقالت متخاذلة : « إذن فأنا مضطرة إلى الاعتراف لك بما لم تعترف به امرأة لزوجها ، مستمدة القوة على ذلك من براءة تصرفاتى ونواياى . إن لدى من الأسباب ما يجعلنى أفضل الابتعاد عن مجتمع البلاط ، لأنى أريد تجنب الأخطار التى كثيراً ما تصيب النساء فى مثل سنى . إنى لم أظهر قط أية بادرة من بوادر الضعف ، وأعتقد أننى لن أفعل ذلك ، إذا سمحت لى بالانسحاب من المجتمع الذى أخشى على نفسى منه !.. ومهما تكن خطورة الإجراء الذى أطلبه ، فإنى مغتبطة به .. كيما أظل جديرة بك !.. أتوسل إليك أن تغفر لى ما قد ينم عنه كلامى من مشاعر تؤلمك ، فإننى على الأقل لن أؤلمك بتصرفاتى .. ولتذكر جيداً أن الخطوة التى أتخذها الآن إنما تمليها على المحبة والتقدير لك ، اللذان يفوقان أقصى ما أظهرته امرأة لزوجها فى يوم من الأيام .. فبربك أرشدنى ، وارث لى ، وأقم على حبك لى .. إذا استطعت ! » .

فيجيبها واجماً : « إننى لم أستطع يوماً أن أوقظ الحب فى قلبك ، وها أنا أراك تخشين أن تكونى قد وقعت فى هوى رجل آخر .. فمن هو يا سيدتى ذلك السعيد الذى يوقظ فى نفسك هذا الخوف ؟ »

فيجيبها واجمًا :
إننى لم أستطع يومًا أن أوقظ الحب فى قلبك ..

● لكن الزوجة لم تكد تنتهى من اعترافها حتى ندمت على أنها تفوهت به !.. فقد رأت زوجها ينهار تحت وطأة الصدمة ويستسلم ، لليأس والإحساس بالتعاسة ، مغالياً فى تقدير خطورة الأمر ، مفسراً ألف حركة وحركة صدرت من زوجته فى الماضى ، على ضوء هذا الاكتشاف الخطير .. الذى حطم قلبه !

وحين خرج التعس وانفردت هى بنفسها ، استعادت فى ذهنها كل ما قالت .. فهالتها بشاعة الأمر !.. لم تستطع أن تصدق أنه وقع .. أحست أنها قد دمرت حب زوجها وتقديره لها ، وأنها حفرت بينها وبينه أخدوداً لن يستطيع ردمه وعبوره قط !.. فساءلت نفسها لم فعلت ذلك ، وأقدمت على هذا الأمر الجليل ؟.. فتبينت أنها إنما اقترفت ذلك الجرم برغمها .. وأقنعتها غرابة اعترافها – الذى لم تعرف له سابقة – بأنها قد تهورت تهوراً لا سبيل إلى التكفير عنه !

وحتى تلك الآونة لم يكن الزوج قد عرف من يكون غريمه !.. لكنها حين صارت تتجنب رؤية مسيو دى نيمور ، أدرك الزوج أنه هو الغريم الذى يبحث عنه .. فواجهها بهذا « الاستجواب » المحرج : « هل كنت تجرئين على رفض مقابلته لو لم تعلمى جيداً أنه يفهم مغزى هذا التهرب ، ويدرك الفارق بينه وبين « عدم المبالاة »!؟.. ولكن لماذا تكلفين نفسك مشقة هذه الصرامة إزاءه؟.. أواه يا سيدتى ، إن كل شىء يقبل من مثلك ، إلا الفتور !.. لكم

أنا شقى ، بل أشقى الرجال قاطبة !.. فها أنت زوجتى ، وأنا أحبك كما يحب الرجل خليلته .. لكنك تحبين رجلا آخر .. وهذا الآخر هو أكثر رجال المجتمع جاذبية ، وهو يراك كل يوم ، ويعلم أنك تحبينه ! »

° ° °

● وأخيراً يسمح مسيو دى كليف لزوجته بالسفر إلى الريف ، إلى « كولومبيه » .. وهناك تستقبل صديقة لها ، وتقضى معها بعض الوقت . وحين تعود الصديقة إلى باريس تروى فى أحد المجتمعات – عن غير قصد – أن مدام دى كليف مولعة بقضاء شطر من الليل وحيدة فى « الكشك الصينى » الكائن فى وسط الغابة المحيطة بقصرها !

فلا يكاد مسيو دى نيمور يسمع هذا القول ، حتى يدور فى ذهنه هذا الخاطر : هل يهرع إلى هناك ليشبع بصره من حبيبته – عن بعد – دون أن تراه ؟

وكأنما يقرأ مسيو دى كليف – الذى كان حاضراً – أفكار غريمه ، ويستنتج من فوره إن هذا لن يفوت الفرصة التى سنحت له لرؤية محبوبته .. فيرسل رسولا أميناً كى يتربص لهما فى الغابة ، ويرى ما يكون من سلوك زوجته !

وبالفعل يسافر دى نيمور إلى (كولومبيه) . ويدخل الغابة ، ثم يتسلل إلى مكان يستطيع منه أن يرى حبيبته !.. ويجدها حيث توقع أن تكون . فإذا هى أجمل وأفتن حسناً مما كان يعرفها . بحيث يضطر إلى أن يبذل جهداً جباراً كى يقمع شوقه إلى إظهار نفسه لها !.. لقد كانت الليلة دافئة . فلم تستر الفاتنة كتفيها بشىء ، سوى شعرها المرسل الطويل .. وكانت تضطجع على أريكة مريحة ، وأمامها منضدة صغيرة قد انتثرت عليها بضعة أشرطة للشعر من مختلف الألوان .. ورآها عاشقها تختار أحدها . فإذا هو من نفس لون الوشاح الذى ارتداه هو أخيراً فى مناسبة رسمية !.. ثم رآها تتأمل طويلا صورة أمامها . فإذا هى صورته هو !

لعل من المستحيل أن يستطيع كاتب تصوير شعور المحب فى تلك اللحظة . وهو يرى حبيبته فى قلب الليل . فى أجمل بقعة فى العالم . مستغرقة بكل كيانها فى أفكار وخيالات تدور كلها حوله هو . وحول حبها له . الذى تخفيه عنه .. وهى تجهل وجوده على قيد خطوات منها . وتجهل أنه يراها !.. إنها متعة لعل عاشقاً آخر على الأرض لم يستمتع قط بمثلها !

وتظل مدام دى كليف تجهل كل شىء عن زيارة حبيبها للغابة فى تلك الليلة !.. فى الوقت الذى تشاء فيه المصادفة الممقوتة أن يخطئ الرسول فى نقل نتيجة تجسسه على الزوجة إلى مسامع زوجها ،

فيفهم هذا – خطأ – إن الحبيبين التقيا فى تلك الليلة ، وقضيا بعض الوقت معاً فى خلوة !

ويعجز التعس عن مقاومة تأثير الصدمة ، فيصاب من فوره بحمى شديدة .. وتخطر زوجته بمرضه ، فتخف إليه بغير إبطاء .. وفيما هى منكفئة على فراشه تبكى من فرط قلقها ، يقول لها بصوت واهن متقطع : « إنك تذرفين دموعاً غزيرة يا سيدتى ، أسفاً على وفاة أنت سببها .. لكنها لا تستحق منك هذا الحزن البالغ الذى تظهرينه !.. لماذا صارحتنى بحبك لمسيو دى نيمور ما دامت عفتك أضعف من أن تستطيع مقاومته ؟.. إننى أكن لك حباً كان يكفى لأن أظل مخدوعاً عن الحقيقة ! أعترف لك بهذا والعار يقتلنى .. ولكم اشتقت لذلك الأمان الزائف الذى حطمته بصراحتك !.. فلماذا لم تتركينى مستمتعاً بالعمى المبارك الذى ينعم به أكثر الأزواج ؟ لقد كنت كفيلا بأن أعيش حياتى جاهلا بحبك لمسيو دى نيمور !.. أما الآن . فإنى أموت شاعراً بأنك قد جعلت الموت محبباً إلى .. فإننى بعد حرمانى من الحب والإعزاز اللذين كنت أحسهما نحوك ، لن أستطيب الحياة .. بل إنها قد غدت كريهة فى عينى !.. ووداعاً يا سيدتى . ولسوف تفتقدين يوماً الرجل الذى أحبك أصدق الحب وأوفاه »!..

ويلفظ آخر أنفاسه !.. فتحزن الزوجة عليه حزناً يفوق حدود التعقل .. ولا تفارق خيالها صورته وهو يموت . من أجلها .

مقيماً على حبه لها .. فتتهم نفسها بجريمة « عدم شعورها بالحب نحوه » .. كأنما الأمر كان فى مقدورها !

ويقضى « مسيو دى نيمور » أيامه حائماً حول الدار التى تضم محبوبته . حاسباً أنها ما دامت تخلص له الحب فسوف تقبله زوجاً ، بعد أن زال من الطريق العائق الذى كان يفصل بينهما .. وزال معه الواجب الذى كان يفرض عليها أن تقاوم حبها ، وتقمع مشاعرها !

ويرتمى العاشق عند قدمى فاتنته ذات يوم ، فتعترف له بأنها تحبه ، وأنها طالما أحبته .. « إنه ليسعدنى أن تعلم ذلك ، ولو أننى لست واثقة تماماً مما إذا كنت أصارحك بذلك الآن بدافع حبى لك ، أم حبى لنفسى ، كيما أستريح من هذا العبء الجاثم على ضميرى .. سيما وإن اعترافى لن تترتب عليه أى نتائج . فلسوف أظل أراعى الحدود الصارمة التى يفرضها على واجبى » !

ويصعق دى نيمور .. ويحاول إقناعها بأنه لم يعد يكبلها واجب ما ... « أى شبح للواجب تقيمينه فى وجه سعادتى » ؟

— لقد مات بسببى .. وبسببك !

وعبثاً ينصب المسكين نفسه مدافعاً عن قضية الهوى ، فإن حاسة الواجب — أو ما تعتبره الأرملة واجباً — لا تزال هى الغالبة على مشاعرها .. فهى تجيبه : « أعترف أن العاطفة قد تقودنى وراءها ، لكنها لن تستطيع أن تعمينى تماماً .. وما من شىء يحول دون

إدراكى أنك قد خلقت حائزاً لكل مؤهلات النبل ، والشهامة ، والنجاح فى بلوغ أهدافك .. لكنك طالما أحببت ، ولسوف تحب مراراً أخرى .. أما أنا فما عدت قديرة على إسعادك . وما عاد هناك مفر من أن أراك تحب امرأة أخرى كما أحببتنى .. وإن كنت غير واثقة من قدرتى على احتمال الصدمة ، وعلى عدم الشعور بالغيرة الموجعة ! »

ورغم ذلك يأبى دى نيمور أن يصدق أنها جادة ، وأنها ستقوى على السير فى الشوط إلى آخره !.. فيبذل أقصى ما فى وسعه كى يقنعها بالعدول عن قرارها .. ويستمر فى محاولاته شهراً..فشهوراً.. فعاماً .. فأعواماً !.. لكنه ييأس آخر الأمر ، ويتعاون الزمن والبعد على تخفيف حدة لوعته ، وإطفاء نار هواه ..

أما هى ، فتقضى بقية أعوامها على نمط واحد : نصف العام فى الدير ، ونصفه الآخر فى بيتها — فى عزلة ، لعلها أشد وأقسى من عزلة الدير ! — منشغلة بأعمال الخير الخالصة .. التى تقرب من أعمال القديسين .

وهكذا عاشت مدام دى كليف ، مثلا أعلى للفضيلة والعفة .. وهكذا ماتت مقيمة عليهما !

٤ ــ العفة ... والسعادة!

● هـذا هو الكتاب الذى أحدث ضجة كبرى عند ظهوره ... والذى يعتبر إلى اليوم من أروع آيات فن القصة الطويلة .. والذى حاول شاب من كتاب هذا العصر – هو « ريموند راديجيه » – أن يقلده وينسج على منواله ، فى قصة حديثة له أطلق عليها « مرقص الكونت » ..

فأى جديد جاءت به « الأميرة دى كليف » ، كى تظفر بهذه المكانة الخالدة ؟

أولا : بساطة البناء ، الجديرة بعظماء كتاب المسرح فى الأدب الفرنسى .. فبضربة واحدة ، وضعت « مدام دى لافاييت » نموذجاً للون أساسى من ألوان القصة الفرنسية الطويلة .. وأن من يطالع قصة « أندريه جيد » العصرية التى أطلق عليها : « السيمفونية الريفية » ، يلمس – بوضوح – التزامه ذات الأسس التى راعتها « مدام دى لافاييت » فى بناء قصتها ، وهذه الأسس هى : الأسلوب الطبيعى البسيط .. والاهتمام بتصوير « المشاعر » .. والتحليل الرقيق المتحفظ .. والإيجاز الرصين فى القصة .

بل إن « مدام دى لافاييت » كانت أيضاً أول من صورت فى أدبها ما يصح أن يسمى بـ « مجتمع الفراغ » ! .. وهى أول من وصفت الرقة المتناهية فى العواطف التى يمكن أن تنمو بين الرجال والنساء من ذوى النفوس النبيلة ، حين لا يكون ثمة شاغل لهم غير

الحب ! .. وقد عرفنا مجتمعات من هذا اللون فى فرنسا – وبخاصة فى باريس – خلال السنوات السابقة للحرب .. وسوف نرى حين نتحدث عن « مارسيل بروست » فى الفصل الخاص به من هـذا الكتاب ، كم ستكون المقارنة شائقة بين وصفه لعواطف العاطلين ذوى الفراغ ، وبين وصف مدام دى لافاييت لهذه العواطف !

ففى تصوير الأخيرة لشخصيتى مسيو دى نيمور ، ومسيو دى كليف ، نراها قد رسمت صورة للرجل الذى يقبل أن يكون عبداً للتقاليد التى فرضها على نفسه ! .. الرجل المتزمت الذى قد يثير ابتسام الأجيال الساخرة ، وإن لم يخل تزمته من « عظمة » ! .. فالمرء قد يجد قديسين أو فلاسفة أو ثواراً أكثر منه عنفاً فى تزمتهم ، لكن الذى الذى لا شك فيه أن مجتمعاً يكون مؤلفاً من مثل هذا الرجل ، إنما يمثل انتصار الإنسانية فى البشرية على الحيوانية !

ولكن ، ترى هل يمكن القول بأن المبادئ الخلقية التى التزمها أبطال « الأميرة دى كليف » قد جلبت لهم السعادة ؟ كلا ، ألبتة .. فنحن قد رأينا مسيو كليف يموت حزناً ، ومدام دى كليف ترفض الرجل الذى أحبته – بعد أن تسببت فى وفاة الرجل الذى قدرته ! – ثم تقضى بقية حياتها فريسة لتبكيت الضمير . أما مسيو دى نيمور فقد خاب أمله ، ولم يظفر قط بالمرأة التى أحبها .. وهكذا كان الفشل الكامل نصيب أشخاص القصة الثلاثة ! .. فهل نخرج من ذلك بأن نبل الخلق كان خطأ من جانبهم ؟ أو ما كان الضرر

يكون أخف ، لو لم تصارح مدام دى كليف زوجها بحقيقة عواطفها ، أو حتى لو استسلمت لحبها الحرام .. للآخر ؟

يقول « أناتول فرانس » فى مقدمة كتبها لإحدى طبعات قصة مدام دى كليف : إنه سأل امرأة كان يعجب برجاحة عقلها وشجاعتها : « ألا تعتقدين أن مدام دى كليف قد جعلت للفضيلة ثمناً باهظاً ، حين رأت أن الثمن الذى دفعته فيها – وهو موت الزوج .. ويأس المحب ! – لم يكن غالياً » ؟!

· فكان جواب تلك المرأة ما يلى : « أن الأميرة دى كليف تتصرف بوحى اعتبارات إنسانية محضة لا يخالطها أى أثر لمثل أعلى .. ذلك أن الحكمة والتعقل – وهما فضيلتان وقتيتان – توجهان حياتها ، وتسيطران على مشاعرها .. بل إن ما هو أكثر من الحكمة ، وهو اعتزازها بمكانتها الاجتماعية ، ينفذ إلى أعماقها ويحميها .. إنها تعبد المظاهر الخارجية إلى أقصى حد ، وتخفى الكثير من أحزانها الخفية خلف قناع الكبرياء والترفع الجميل !.. وفى وسعى أن أتصور أن الحياة لابد كانت فى نظر هذه المرأة الفاتنة – التى كانت نفسيتها ومعنويتها أقل تعقداً من نفسياتنا فى هذه الأيام – أشبه بقاعة استقبال فاخرة متلألئة بالأنوار ، يتعين عليها أن تعبرها مرفوعة الرأس ، مزهوة بنفسها ، ثم تمضى تاركة الحاضرين يسلقونها بألسنتهم الحادة !.. وأحياناً يلزم المرء ، كى يبتسم وسط مأدبة عشاء ، نصيب من الشجاعة و « البطولة » يفوق ما يلزمه فى ميدان

القتال !.. وقد كانت مدام دى كليف تملك هذا النوع من الشجاعة ، تملكه إلى حد إنكار الذات ، بل إلى حد الاستشهاد !.. ونحن نراها مجردة من كل ضعف ، لكنها مجردة أيضاً من كل شفقة .. فهى تدع رجلين ينحدران إلى مهاوى اليأس ويموتان ، مع أنها تعشق واحداً منهما على الأقل !.. وهى بمنجى من توبيخ الضمير ، لأنها ظلت تلتزم مسلكاً لا غبار عليه ، ولم تسمح لشىء بأن يخدش خلقها الرائع .. إنها نموذج لما تستطيع التربية الاجتماعية الصارمة والحياة المتزمتة أن تصنعه .. كما أنها مثال شامخ – وإن يكن مخيباً للآمال ، محطماً للقلوب – لما تفعله الفضيلة والأخلاق الرفيعة بسعادة الرجال !.. والمرء أمام هذه النفس العفيفة التى لا ترحم ، لا يملك إلا أن يسأل نفسه : أليس منبع هذه الفضيلة هو الكبرياء ، التى عزّتها عن كل شىء .. حتى عن الضرر الذى أحدثته » !؟

احتمالان .. لا ثالث لهما !

● والواقع أن هناك تعليلين محتملين لمسلك مدام دى كليف : إما أن عواطفها الحسية ضعيفة غير ملحة .. أو أنها تملك من قوة الخلق ما يكفى لقمع شهواتها العنيفة .. أى أنها إذ تنازعتها الرغبة والواجب ، اختارت الواجب !.. وإذا استطعنا إنكار « حكمة » هذا التسليم المطلق لحكم الواجب ، فليس يسعنا أن ننكر جلاله وروعته !

ومهما يكن من شىء ، ومهما صادفنا فى بقية قصص هـذا الكتاب أو فى غيرها من القصص ، شخصيات أخرى قريبة إلى شخصيات هذه القصة فى النبل والعفة .. إلا أننا لن نجد ما يعادلها سمواً ، وتواضعاً ، وجلالا !

ولن نكف عن أن نذكر بالاحترام والعطف تلك الليـالى المحمومة فى باريس القرن السابع عشر ، حيث عاشت - بقرب حدائق اللوكسمبرج - روحان اجتمع فيهما العنف والعفة .. والبطولة والرقة !



٢ ـ الحب المنطوى على الخيال

(جوليا « هيلويز الجديدة » لجان جاك روسو

الحب « الرومانتيكى »

● فى الفصل السابق حدثنا «موروا» عن الوجه الأول من وجوه الحب السبعة ، وهو الحب المنطوى على الفروسية .. الحب الذى كان طابع القرن السابع عشر .. وساق «موروا» كمثال على هذا النوع من الحب ، قصة «الأميرة دى كليف» ـ لمدام دى لافاييت ـ فلخصها لنا تلخيصاً شائقاً ، وعقب عليها بالتساؤل عن مدى التلازم أو التنافر بين العفة .. والسعادة !

واليوم يحدثنا المؤلف عن الوجه الثانى من وجوه الحب السبعة ، وهو الحب الرومانتيكى ، المنطوى على الخيال .. ويسوق لنا مثالا عليه ، قصة جان جاك ررسو الخالدة : « جوليا » أو « هيلويز الجديدة » ـ وقد أطلق عليها الشطر الأول من الاسم باعتباره اسم بطلتها .. والشطر الثانى ، تشبيهاً لها بالقصة الواقعية لغرام الفيلسوف والعالم الفرنسى « بيير أبيلار » عام (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) بتلميذته العذبة « هيلويز » عام (١١٠١ ـ ١١٦٤) .. فتعال معى نصحب أندريه موروا فى رحلته الممتعة هذه ، فنقلب معه صفحات هذه القصة الكلاسيكية الخالدة .. ونعيش ساعات فى جو غرام « جوليا » ومعلمها الشاب « سان بريو » .. بل نعيش فى جو غراميات « روسو » الواقعية ، وجو المجتمع الفرنسى كله فى عصر روسو ... إلخ .

● عندما صدر كتاب « جوليا » ، حمله بائع كتب متجول إلى الأميرة « دى تالمون » ، فى ليلة كان يقام فيها مرقص كبير فى دار الأوبرا .. فلما تناولت الأميرة العشاء وارتدت ثياب السهرة ، جلست تتصفح الكتاب فى انتظار موعد الحفلة .. حتى أقبلت عليها وصيفتها قبيل منتصف الليل تعلن إليها أن مركبتها قد أعدت .. لكنها استمرت تقرأ .. حتى جاءها الخدم ينبهونها إلى أن الساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، فقالت الأميرة : « لا داعى للعجلة » . واستمرت فى القراءة !.. وبعد فترة أخرى توقفت ساعة الأميرة ، فدقت الجرس كى تسأل عن الوقت ، فلما قيل لها : إنه الرابعة صباحاً .. قالت فى غير أسف : « أعتقد أن أوان الذهاب إلى الأوبرا قد فات .. فليرجع الحوذى العربة إلى حظيرتها » .. ثم خلعت ثياب السهرة ، وقضت بقية الليل تقرأ .. القصة !

ولم تكن الأميرة وحدها التى شغفت بالقصة ، بل إن جميع نساء ذلك العصر ، وأكثر رجاله ، قرأوا « جوليا » بنفس الحماسة والانكباب ، فقد كان نجاح الكتاب هائلا — رغم مهاجمة النقاد له ، ومنهم فولتير ! — ويمكن القول فى غير مغالاة : إن « روسو » ، أستاذ الرقة والأحلام العاطفية ، قد علم الحب — بواسطة هذا الكتاب — لنابليون ، وجيته ، وستندال ، وجميع رجال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر !.. بل لقد أجمع النقاد على أن روسو كان أول كاتب لفت الأذهان إلى الصلة بين العواطف

والمشاعر وبين جمال الطبيعة ، فكتب أحدهم يقول : « هل كانت توجد أشجار وحشائش قبل روسو ؟.. يكاد المرء يعتقد أنها لم تكن ! » .. وإذا كان من الطبيعى والشائع اليوم أن يقرن المرء مولد عاطفة ، بين رجل وامرأة ، بنزهة ليلية فى ضوء القمر .. أو يقرن انطفاء حب بنزهة فى ساعة الغروب ، فى يوم من أيام الخريف ، وقد تساقطت عن الأشجار أوراقها الجافة وتكسرت تحت الأقدام ... إلخ .. فإن هذا التجاوب بين شاعرية الطبيعة ، وشاعرية القلب ، لم يصفه كاتب قبل روسو !

والخلاصة أن قصة « جوليا » قد بدلت أساليب الحب لنصف قرن من الزمان على الأقل !.. فقد رأينا فى قصة « مدام دى كليف » كيف كان الحب فى القرن السابع عشر يقترن بالشرف .. أما فى القرن التالى له فقد صار الناس يسخرون من هذا اللون من ألوان الحب ، واستبدلوه بالحب الذى لا يزيد عن كونه متعة ! وبعد أن كان العشاق يفخرون بكتمان عواطفهم ، صاروا يتفاخرون بسرد غرامياتهم فى حرية وفى جرأة ! ورغم أن الفتيات لم ينقطعن فى ذلك القرن عن قراءة « مدام دى كليف » وغيرها من القصص التى تصور حب القرن السابق ، فإنهن كن يلقين هذه القصص جانباً إذا ما بلغن سن العشرين ، ويفقدن كل اهتمام بذلك الطراز العتيق من الحب .. تمشياً مع روح العصر والمجتمع الذى يعشن فيه !

وهكذا تسلك نساء القرن الثامن عشر مسلك الرجال ،

ويقتبس أخلاقهم ومبادئهم .. لكن تهتكهن هذا ينتج ثمرته الطبيعية، وهى الشعور بالسأم والملل من الحياة .. فإنه لا شىء يملأ فراغ الإنسان ويشغل أوقاته مثل الحب الصادق المصحوب بالشكوك ، الذى يجعل العاشق يقضى أياماً بأكملها يفكر ، ويحلل ، ويفسر : ابتسامة من المحبوب ، أو توّرد خد ، أو نظرة عين ، بحيث يخلق منها فى كل لحظة أسباباً جديدة للأمل ، ومبررات جديدة للخوف أو اليأس !

تلك هى الظروف التى ظهرت فيها قصة « جوليا » ، فلقيت نجاحاً منقطع النظير .. فى عهود الفساد والانحلال الخلقى يكون امتداح الفضيلة بدعة تثير فضول الناس وإقبالهم ! وهكذا وجد أفراد المجتمع الفرنسى فى سنة ١٧٦٠ م فى جان جاك روسو وكتابه ضالتهم المنشودة ، فقد كان يمثل فى نظرهم نفس العناصر التى تنقصهم فى حياتهم .. وهى : الفضيلة ، والعاطفة ، وبساطة الحياة الفطرية ..

المؤلف

● كان أبوه « ساعاتى » فى مدينة (جنيف) ، وأمه ابنة قسيس .. وقد فقدها وهو طفل ، واضطر أبوه إلى الفرار من جنيف بسبب نزاع مع السلطة الحاكمة .. وحين كبر الصبى تنقل بين أعمال مختلفة ، فاشتغل فترة عند أحد الصناع ، وفترة أخرى فى مكتب ..

ثم هرب بدوره من أبيه ، وبدأ مراهقته شريداً !.. وبعد حين تبنته امرأة تدعى « مدام دى فارين » ، وتولت تعليمه .. ثم انتهى بها الأمر إلى أن صارت خليلته ، بغير أن تحبه ! مثلها فى ذلك مثل « جورج صاند » ، التى صارت خليلة الموسيقى شوبان بدافع من الشفقة والشعور بالواجب !

وبعد أن ترك روسو مدام دى فارين ، تقلب فى أكثر من عمل : بين سكرتير لكاهن يونانى ، ونقاش ، وموسيقى ، وتاجر متجول ... إلخ .. وخلال ذلك كله ظل دائماً نفس الفنان الحالم الذى يستجيب لسحر الطبيعة ومباهجها العاطرة ، فيتأمل صفحة السماء فى جذل ، وينظر إلى خضرة الحقول فى نشوة ، ويصغى إلى خرير الماء فى الجدول مأخوذاً .. فلما جاء عام ١٧٤١ ، شد رحاله إلى العاصمة : باريس !

فما الذى أغراه بأن يهجر أشجاره ، وأطياره ، وأنهاره ؟

أغراه المجد !.. المجد الذى قرأ عنه فى « بلوتارك » وحلم به .. فمضى يسعى إليه عن طريق الموسيقى ! كان قد وضع ألحان أوبرا كاملة ، وابتدع طريقة جديدة لكتابة النوتة الموسيقية .. لكن المجد كان ينتظره من باب آخر ، وواتاه فى سهولة ويسر ! لم يحوجه الأمر إلى أكثر من بضعة خطابات توصية فتحت له صالون مدام « دوبان » الأدبى ، الذى كان قبلة أهل الفن والأدب ، فدخل فى زمرتهم .. وحين أعلنت أكاديمية « ديجون » عن مسابقة وجائزة

كبيرة لمن يكتب أحسن رسالة فى العلوم والفنون ، كتب رسالته المشهورة التى هاجم فيها الحضارة ونادى بالعودة إلى أحضان الطبيعة ، وبنظريته الجديدة التى مؤداها إن مبادئ الفضيلة محفورة فى كل قلب ، بحيث يكفى أن ينظر الإنسان إلى أعماق نفسه ويصغى إلى صوت ضميره ، فى سكون الرغبات والعواطف ، كى يراها بوضوح !

وفى سنة ١٧٥٢ مثلت روايته « عراف القرية » أمام الملك ، فظفرت بنجاح هائل .. ووقف المؤلف يتلقى التهانى وقد أطلق لحيته وبدا فى هيئة الرجل المتوحش . فأثارت غرابة شخصيته فضول الناس .. حتى اشتاقت « فرساى » بأسرها إلى التعرف إليه !

باريس تمجد « روسو » !

• ولكن المجتمع الذى خف إلى الترحيب بروسو فجأة وبسهولة عجيبة ، لم يظفر بإعجابه .. فراح ينقده فى كتاباته بصراحة وجرأة . ويسلق بألسنة حداد مايسود صالوناته من رياء وزيف ، وسفسطة ، ومباذل !.. وكان أفراد تلك المجتمعات — وخاصة النساء منهم — يشعرون بنقائصهم ، فأحسوا لذة مريرة فى مطالعة وسماع النقد الموجه إليهم ! وكانوا على استعداد لأن يجعلوا من أى شخص يواجههم بالحقائق الموجعة : بطلا عظيماً !.. وقد ظهر روسو فى الوقت المناسب . فاتخذوه بطلهم المفضل ، وصار إعجابهم به « موضة » العصر !.. لكن « الموضات » والبدع لا تطول عادة أو تدوم على حال . بل تتبدل بسرعة .. وهكذا سرعان ما سئم

الباريسيون روسو ، بنفس السرعة التى هللوا بها له وكبروا !.. ولكن إذا تأثر من ذلك روسو الإنسان وتألم ، فإن أدب روسو قدر له أن يغزو إمبراطورية بأسرها ، ويبدل أساليب الشعور والعواطف لقرن كامل من الزمان !

« الصومعة ! »

• وكانت النتيجة الأولى لكفران باريس بروسو أنه كره العاصمة وأهلها ، وعاوده الحنين إلى الارتماء بين أحضان الطبيعة فى الريف ..

وتهيأت له أسباب ذلك حين عرضت عليه « مدام ديبيناى » فى سنة ١٧٥٦ أن يعيش فى بيتها الريفى المسمى « الصومعة » ، الكائن فى حدائق « مونتمورينسى » .. فقبل مرحباً ، وحل بالصومعة ذات يوم ومعه خليلته « تيريز لوفاسور » — التى كانت تعمل فى حانة عندما تعرف بها ، فأعجبته بساطتها وأنوثتها ، ورقتها ، وعاهدها على أن لا يهجرها قط .. لكنه صارحها فى الوقت نفسه بأنه لن يتزوجها !

ووجد فيها رفيقة للجسد والقلب ، دون العقل !.. فلما سافر إلى الريف أخذها معه .. وهناك ثمل روسو بخمرة الهواء الطلق الجميل ، وخضرة الحقول ، وتغريد البلبل والكروان ، فبدأ يحلم .. ونبتت فى ذهنه البذور الأولى لقصة جوليا : جمع فى ذاكرته كل النساء اللواتى أثرن مشاعره ، منذ عرف المرأة فى شبابه الباكر حتى الآن ، بادئاً بفتاتين من عذارى سويسرا الفاتنات خرج معهما فى

نزهة بريئة وهو ما يزال حدثاً .. ثم مدام دى فارين ، المرأة الفاضلة التى تبنته فى صباه ، فانزلقت معه إلى الخطيئة عطفاً عليه !.. ثم « مدام دى لورناج » التى تغلبت على خجله وحيائه الفطرى بأن بدأت هى بمغازلته !.. وكنى ، فقد كانت تلك هى كل غرامياته تقريباً من سن الخامسة عشرة حتى سن الخامسة والأربعين !.. ذلك أنه كان يترفع عن طبقة عاملات المحلات التجارية ، والحائكات والخادمات .. وفى هذا يقول فى اعترافاته : « كنت دائماً أنشد نساء الأسر العريقة ، لا بدافع الزهو والغرور ، أو التأثر بجاذبية طبقتهن الرفيعة فى ذاتها ، وإنما إرضاء لميلى الشديد إلى المرأة ذات البشرة الناعمة — التى لم يفسدها العمل اليدوى — والثوب الأنيق ، والشعر المصفف ، والحركات المهذبة .. بحيث كنت أفضل المرأة التى تتحلى بهذه الشروط ، ولو كانت أقل جمالا من الحسناء التى تنقصها هذه الأمور ! والواقع أنى أعتبر هذا التفضيل مدعاة للسخرية ، لكن قلبى يقودنى إليه بالرغم منى » !

منشأ فكرة القصة

● قلنا إن روسو جمع فى ذاكرته كل من عرف من النساء ، كما يجمع السلطان حريمه حوله ، فغلى دم الشباب فى عروقه من جديد ، لا حنيناً إلى الشباب والحب ، وإنما حنيناً إلى الفن . أراد أن يصوغ من تأملاته وأحلامه عملا فنياً خالداً .. ولندعه يصف مراحل تفكيره فى قصة « جوليا » : « تصورت الحب والصداقة

— معبودى قلبى — فى أبهى صورهما ، فى هيئة امرأتين صديقتين .. ووجدت نفسى أريق عليهما كل جاذبية الجنس الذى طالما عبدته وعشقته ، وكل سحره ، وزينته !.. ووهبتهما طباعاً وأخلاقاً مختلفة ، ومظهراً مختلفاً : جعلت إحداهما سمراء ، والثانية شقراء !.. إحداهما عشيقة للرجل ، والثانية صديقة له . وأما الرجل نفسه — بطل القصة — فقد جعلته ظريفاً ، وسيماً ، شاباً ، له نفس الفضائل والرذائل التى أعرفها فى نفسى !.. وإذ انتهيت من تهيئة أشخاص القصة ، بدأت أبحث لها عن مكان مناسب .. حتى وقع اختيارى على بحيرة جنيف ، التى ولدت على شاطئها ، فوضعت الجميلتين اللتين خلقتهما ، فى ضاحية « فيفى » الساحرة ... » .

((هيلويز الجديدة !))

● فإذا بدأت القصة ، فقد اختار النبيل السويسرى مسيو « ديتانج » لابنته « جوليا » معلماً يدعى « سان بريو » .. فوقع المعلم فى هوى تلميذته الجميلة ، وآثر أن يفاتحها بغرامه « كتابة » !.. فأرسل إليها خطاباً ، لا يطلب إليها فيه شيئاً ، وإنما حسبه أن يقول لها إن جمالها قد أعشى عينيه : « .. ولم لا أفرض أن قلبينا ينبضان بعاطفة واحدة ، كما يخيل إلى ؟.. إنه ليحدث أحياناً أن تلتقى أعيننا فجأة ، فتفضح التأوهات مشاعرنا ، وتنهمر من مآقينا الدموع ! أواه ، يا حبيبتى جوليا ، لو يكون اتحاد روحينا إلهاماً

إلهياً !.. لو تكون السماء قد أعدت كلينا للآخر .. دون أن يحوجنا الأمر إلى الفرار » ؟!

لكنه لم يكد يرسل هـذا الخطاب ، حتى ألحق به آخر .. يقول فيه: « .. مائة مرة فى اليوم أحس بإغراء يكاد يدفعنى إلى أن أرتمى عند قدميك ، وأغسلهما بدموعى !.. ولكن رهبة مفاجئة تشل عزمى ، فترتجف ركبتاى بحيث لا تقويان على الانحناء ، وتموت الكلمات على شفتى !.. هل تريديننى أن أذهب ؟ إذن فسأذهب .. » .

.. وتخيفها الفكرة ، فتضطر إلى أن تكتب إليه .. لأول مرة .

« لا تكن عنيداً فى ظنك أن سفرك ضرورة ملحة .. فإن القلب الذى يدين بالفضيلة يستطيع أن يتغلب على حماقته ، أو يصمت !.. على أى حال ، أنت تستطيع أن تبقى .. » .

فيجيبها : « لقد لذت بالصمت زمناً طويلا .. حتى اضطرنى برودك وعدم مبالاتك إلى أن أتكلم آخر الأمر .. والآن ، يجب أن أذهب » !

فتكتب إليه خطابها الثانى : « كلا يا سيدى .. إن الرجل الحق — كما تعتبر نفسك — لا يفر أو يهرب .. وإنما قد يفعل أكثر من ذلك » !

ويخطىء فهم قصدها ، فيرد على خطابها : « إنك تدعيننى إلى الانتحار ! حسناً ، سوف أقتل نفسى ، فهذا أقل ألماً من الفرار بعيداً عنك » !

وتجيبه فى خطابها الثالث : « يا لحماقة الشباب .. إذا كانت حياتى غالية عندك ، فلا تمس بسوء حياتك » !

ثم تتبعه مباشرة بخطاب رابع : « هل يجب أن أعترف لك فى النهاية بسرى الرهيب ، الذى لم أنجح فى إخفائه ؟ لقد طالما أقسمت أن لا يبرح هذا السر قلبى إلا مع نفسى الأخير .. لكن تهديدك ينتزعه الآن منى . أحسبك فهمته .. يا لضيعة شرفى » !

الشرف !.. نعم . فإنهما رغم غرامهما المتبادل الجارف ، يحرصان كلاهما على أن يلتزما العفة قبل كل شىء آخر .. فترجو جوليا من « سان بريو » ألا يتركها ، لكنها تطالبه فى الوقت نفسه بأن .. يحترمها !.. فتناشده: « كن فاضلا أو أحتقرك .. واحترمنى أو أتركك » !

لكن جوليا ، رغم حرصها على أن .. يحترمها !.. تعرض حبيبها التعس لألوان قاسية من الإغراء والتجارب : فهى تضرب له موعداً فى الغابة ، حيث تنتظره مع ابنة عمها كلارا .. وفيما يلى مشهد الغابة كما يصفه هو فى خطاب إليها : « .. وحين دخلت الغابة أدهشنى أن أرى ابنة عمك تقترب منى ، ثم تسألنى فى مذلة مصطنعة أن أمنحها قبلة .. فأذعنت لطلبها ، دون أن أفهم اللغز الغامض !.. ورغم جاذبيتها التى تعرفينها ، فإننى لم أحصل من قبل على برهان أقوى إقناعاً بانعدام لذة المشاعر التى لا تنبع من القلب ،

من البرهان الذى حصلت عليه لحظتئذ ، حين قبلتها !.. ولكن ما كان أشد اضطرابى ونشوتى ، بعد لحظة ، حين شعرت – ويداى ترتجفان رجفة لطيفة – بشفتيك الوردبتين ، شفتى حبيبتى جوليا ، تلتصقان بشفتى .. وأنا بين ذراعيها !!.. وبأسرع من البرق الخاطف سرت فى روحى نار مفاجئة ، النار التى تسرى مع تنهداتنا من شفاهنا الملتهبة .. وغاص قلبى فى جوفى وقد تملكته غبطة لا تحتمل !.. وبغتة رأيت لونك يتغير ، وعينيك تغمضان ، ثم استندت على ابنة عمك ، وسقطت مغشياً عليك !.. وعندئذ أطفأ الخوف والقلق كل نشوتى ، واختفت سعادتى كما تختفى الظلال .. ولست أدرى شيئاً مما حدث منذ تلك اللحظة المميتة ، كما أن الأثر الذى خلفته فى قلبى لن يمحى قط !.. ترى هل قصدت بقبلتك أن تمنحينى فضلا ومنة !.. كلا ، بل عذاباً مروعاً ، فاحتفظى بقبلاتك ! لست أستطيع أن أحتملها .. إنها تفيض مرارة ، وتتغلغل ، بل تلذع ، بل تحرق حتى النخاع .. إنها كفيلة بأن تقودنى إلى الجنون ! » .

ولكى يسترد « سان بريو » هدوءه وسكينة نفسه ، يضطر إلى الارتحال .. وخلال فترة غيابه ، يدخل والد جوليا فى روعها أنه لن يسمح لها يوماً بالزواج من رجل وضيع الأصل .. ورغم ذلك فإن جوليا حين يعود حبيبها ، تصير خليلته !.. ثم يمتلكها وخز الضمير على الفور ، فتحدث نفسها : « ليته يفر منى إلى الأبد ،

ويحرم نفسه من تلك اللذة الوحشية ، لذة كونه شاهد عيان لأحزانى .. ولكن لماذا أهذى هكذا ؟ إنه ليس الملوم . أنا وحدى المذنبة . أنا وحدى التى نسجت خيوط مصيرى التعس .. ولست أستطيع أن ألوم غير نفسى ، من أجل ما حدث » !

ويحاول صديق لسان بريو يدعى « إدوار ميلور » أن يقنع والد جوليا بالموافقة على زواجها من حبيبها ، ولكن دون جدوى !.. بل إن الوالد يصر على أن يرحل الفتى فوراً ويغادر سويسرا ، بأسرها .. فيضطر التعس إلى الذهاب إلى باريس .. ومن هناك يواصل مراسلة حبيبته !.. لكن أمها « تضبط » رسائلهما ، فتكتب إليه جوليا ملتاعة : « لقد ضاع كل شىء ! واكتشف كل شىء ! لم أجد خطاباتك فى المكان الذى اعتدت أن أخبئها فيه – والذى كانت فيه حتى مساء أمس ! – لابد أنها نقلت منه اليوم فقط . ولا ريب أن أمى هى التى عثرت عليها .. فلو كان أبى هو الذى اكتشفها لفعل أكثر من ذلك .. لقتلنى ! »

وعند هذا الحد ختم روسو قصته فى البداية ، معتبراً أنها قد انتهت بانفصال الحبيبين إلى غير لقاء !.. وحين قرأها على خليلته « تيريز » ، وأمها مدام لوفاسور ، بكت المرأتان تأثراً وإعجاباً.. ولكن الأقدار كانت تدبر للقصة نهاية أخرى ، ولمؤلفها مغامرة غرامية جديدة ، فتحت أمام « جوليا » آفاقاً أخرى .. (مما يعتبر

مثلا حياً من أمثلة الصلة العجيبة بين الحياة والقصص .. بين الحقيقة والخيـال) !

مـدام دوديتو !

● ففى تلك الفترة ، كانت إحدى قريبات مدام ديبيناى — صاحبة « الصومعة » ومضيفة روسو — وتدعى « مدام دوديتو » ، تضمر لزوجها فى قلبها ، (مثل أكثر زوجات القرن الثامن عشر) ، نفوراً خفياً .. انتهى بها إلى أن تتخذ لنفسها عشيقاً ، هو الضابط الشاعر « سان لامبير » .. ويحدثنا روسو فى اعترافاته : أن مدام دوديتو كانت وقتئذ فى الثلاثين ، لكنها لم تكن جميلة أو ممتازة بشىء ، فيما عدا ثروتها من الشعر الأسود المتموج الذى كان يصل إلى ركبتيها .. وفيما عدا روحها الخفيفة ، ولطف معشرها .

لكن الظروف تشاء أن تقطن مدام دوديتو قرب الصومعة . وأن تدخل على روسو يوماً أثناء عاصفة ممطرة وقد ابتلت ثيابها بالماء والوحل ، فتعيرها خليلته « تيريز » بعض الثياب .. وفى مرة أخرى تقبل على الصومعة على ظهر جواد وقد ارتدت زى رجل .. ثم تتكرر زياراتها للكاتب العـاطفى ، لا بغية إيقاعه فى هـواها ، وإنما تلبية لتوصية خليلها « سان لامبير » الذى كان صديقاً لروسو فأوصاها قبل سفره المؤقت أن تؤنس وحدة « الأديب المنطوى على نفسه » بزياراتها من حين لآخر !

وتعلم المرأة أن روسو يعرف بأمر صلتها مع سان لامبير ، فلا ترى بأساً فى أن تحدثه عن الحب ، وتناقشه فيه .. غافلة عن أن المسكين قد وقع فعـلا فى هواها ، وانتقل الحب من حـديثه إلى قلبه ! .. أو كما يقول فى اعترافاته : « كنت قد ثملت بحب لا طائل وراءه .. فصرت أرى فى مدام دوديتو بطلة قصتى جوليا ! .. وبعد حين صرت لا أرى غير مدام دوديتو ! »

ورغم تدله روسو فى حب مدام دوديتو ، فقد حرص على ألا يخون صديقه — وخليلها — سان لامبير .. قانعاً بأن يكون لهـا ، مجرد .. صديق ! .. وكانت هى مثله ، تحب نزهة المشى على الأقدام فى الغابات ذات المناظر الطبيعية الساحرة .. وذات ليلة ، خرجـا للنزهة بعد أن تناولا العشاء معاً ، فى ضوء القمر .. وخلبهما جمـال الكون ، وأشعل فى قلب روسو هواه الكظيم ، فارتمى عنـد قدمى « محبوبته » ، وأغرق ركبتيهـا بعبراته ، وأسـال عبراتهـا هى ، برغمهـا ! .. فذكرته بصـديقه « سان لامبير » ، وإذ ذاك تنهد وصمت .. واكتفى بأن يقبلهـا : « وأى قبـلات ! .. كانت قد انقضت عليها ستة أشهر وهى بعيدة عن عشيقها وعن زوجهـا .. وانقضت على أنا ثلاثة أشهر كنت فيها أراها كل يوم ، أنا وهى وحـدنا .. والحب ثالثنا ! .. وفى تلك الليلة كنا قـد تعشينا معاً . وجلسنا فى الغابة وحدنا ، فى ضوء القمر .. وبعد خلوة استمرت ساعتين ، وكانت من أرق الخلوات وأكثرها إرهافاً للحس ، خرجت

هى فى ظلام الليل من الغابة ، ومن بين ذراعى ، « صديقها » ، سليمة طاهرة الجسم والقلب ، كما دخلت !.. أواه أيها القارئ .. زن جميع هذه الاعتبارات واحكم .. فلن أضيف أنا شيئاً ! »

شيطان الغـــيرة !

● ورغم سيطرة الطرفين على عواطفهما على هذا النحو ، فقد دب فى قلب صاحبة الصومعة دبيب الغيرة من قريبتها مدام دوديتو ، وحين استلم كل من « سان لامبير » عشيق المرأة ، و « تيريز » — عشيقة روسو — خطاباً يفضح لهما تلك الصلة ، فصب كلاهما جام غضبه على روسو .. اتهم هذا مضيفته الغيورة بإرسال الخطاب ، وأغلظ لها فى القول ! ومنذ ذلك اليوم تعذر عليه أن يبقى فى الصومعة التى تملكها ، جاراً لحبيبته مدام دوديتو التى تقطن بيتاً بالقرب منها !.. وبانتقاله من هناك ، انقطعت صلة «الرؤية» بينه وبين محبوبته ، فاستعاض عنها بصلة المراسلة .. صار يرسل لها خطابات حب من نار ، ويحلم بأن ينتقل ليعيش معها ومع خليلها فى بيت واحد !.. ولم يمانع « لامبير » فى ذلك ، فكتب إليه خطاباً رقيقاً يقول فيه : « إن شعورها نحوك لم يتغير ، فهى تحبك وتقدرك ، ولئن كنت أنا الذى قربت بينكما ، فإنى لست نادماً على ذلك .. بل إن قلبى لمشتاق إلى أن أعيش مع المرأة التى أحبها ، والصديق الذى أقدره .. فى بيت واحد !.. ولقد طالما تمنيت أن أقضى حياتى بينها وبينك » !

وكانت هذه الفكرة هى التى أوحت إلى روسو بأن يضيف إلى قصة « جوليا » فصولا جديدة ، بعد أن ختمها على النحو الذى أسلفنا .. وهكذا نرى « سان بريو » يحل جوليا من عهدها القديم له بأن لا تصير زوجة لسواه .. ومن ثم تقبل ، إطاعة لأبيها ، أن تتزوج من « مسيو دى فالمار » ، وهو رجل وقور ، بارد الطباع .. يكبرها بسنوات !

بينما يقوم « سان بريو » بسياحة طويلة حول العالم . وحين يعود — بعد ست سنوات — يستقبله الزوجان فى بيتهما السعيد ، الذى تأوى إليه الفضيلة . ويجد سان بريو صعوبة فى الانفراد بجوليا ، إلى أن يتم له ذلك . لكنها لا تكاد تشرع فى تبرير زواجها وموقفها ، حتى يدخل زوجها الغرفة !.. غير أنها تستمر فى كلامها كما لو لم يكن موجوداً .. وحين يلحظ الزوج دهشة الضيف من ذلك ، يقول له وهو يبتسم : « ها أنت ترى مثالا من الإخلاص ، إن تكن عفيفاً فلتنقل صورة منه ، مما يجرى هنا !.. إنه الطلب الوحيد الذى أطلبه منك ، والدرس الذى أعلمك إياه !.. فإن الخطوة الأولى نحو الرذيلة ، هى إخفاء التصرفات البريئة فى ذاتها !.. وليكن شعارك دائماً : أن لا تقول أو تفعل شيئاً تجد غضاضة فى أن يسمعه الناس جميعاً أو يروه » !

وبعجب سان بريو بما يلمسه من حكمة « جوليا » و « فولمار » ،

فى كل تصرفاتهما .. ثم يخرج مع حبيبته السابقة للنزهة فى قارب، فتذكرهما خلوتهما الشاعرية بالماضى !

« وأيقظ صوت المجدافين الرتيب أحلامى القديمة .. وقبضت صدرى زقزقة العصافير ، التى أعادت إلى ذاكرتى مباهج الماضى السعيد .. وتزايدت الكآبة الجاثمة على قلبى بالتدريج .. فإن السماء الصافية ، وانعكاس أشعة القمر اللطيفة على الماء ، وزبد الأمواج الفضى المتراقص أمامنا .. بل ووجود الحبيبة ذاتها إلى جوارى .. لم يستطع كله أن يذود عن ذهنى ألف خاطر مرير وخاطر ! »

وكل من قرأ قصيدة « لامرتين » المشهورة : (البحيرة) .. وكتابى : « مذكرات من وراء القبر » لشاتوبريان ، و « أشجان أوليمب » لفيكتور هيجو . توقظ فيه عبارات « روسو » السابقة ذكريات صفحات مماثلة رائعة من أدب هؤلاء الثلاثة .. بل إن العبارات المذكورة قد نزلت من نفوس قراء القرن الثامن عشر منزلة رفيعة ، باعتبارها نموذجاً للإخلاص ، والحرارة ، والصدق فى التصوير والتعبير ..

لكن جوليا لا تلبث أن ترقد على فراش الموت .. وفيما هى تحتضر ، تنصح « سان بريو » بأن يتزوج من ابنة عمها كلارا .. لكن هذه ترفض .. فيعيش الاثنان يجتران ذكرى حبيبتهما جوليا، ويسهران على تربية أطفالها !


وفيما هى تحتضر ، تنصح « سان بريو » بأن يتزوج من ابنة عمها كلارا ..

الشرف ... أقوى من العفة !

● ورغم أن هذا الجزء الختامى من القصة كان أقل نجاحاً من الأجزاء التى سبقته ، فإن الحقيقة التى لا مراء فيها أن « هيلويز الجديدة » كانت وما تزال أصدق قصص ذلك العصر تعبيراً عن روحه وطابعه ، بدليل أنها أثرت تأثيراً هائلا فى جيل بأسره من الأفراد !

بقى أن نتساءل : فيم تختلف عواطف الحب التى صورها روسو فى « هيلويز الجديدة » ، عن تلك التى صورتها مدام دى لافاييت فى « مدام دى كليف » ؟

الجواب : إن الحس المرهف قد امتد نطاقه إلى عدد أكبر من الأفراد ، فلم يعد وقفاً على « الأبطال » ، وإنما صار فى متناول الجميع !.. فأشخاص قصة روسو ليسوا أبطالا معصومين ، بل هم أقرب إلى « البشر » من أشخاص قصة مدام دى لافاييت .. فأنت ترى فى القصة الثانية كيف تحتفظ مدام دى كليف وزوجها بوقارهما وترفعهما ، وبلغة التخاطب الصارمة بينهما ، حتى وهما يموتان من الحزن !.. فى حين تنزل « جوليا » و « سان بريو » عن منزلة هذه البطولة شبه الإلهية ، إلى منزلة البشر الضعفاء. فيطلقان التنهدات .. ويذرفان الدموع .. وحين يبلغ بهما الانفعال والتأثر مبلغهما ، يقطع عباراتهما النشيج والغصة !.. صحيح أن أشخاص كل من الروايتين يقاومون شهوتهم باستبسال ، ولا يستسلمون لها

كما يفعل أبطال كثير من القصص العصرية .. لكن الفارق الجوهرى بين القصتين ، هو أن « الحافز » على المقاومة يختلف فى كل منهما : فهو بالنسبة لمدام دى كليف : الشرف !.. لكنه بالنسبة لجوليا : العفة !.. وقد يبدو أن الشرف أقوى من العفة ، إذا لاحظنا أن مدام دى كليف ظلت طاهرة الذيل ، بينما استسلمت جوليا من أول وهلة .. بل شجعت حبيبها على أن يجترئ عليها !.. وإذا قارنا بين مشهد الغابة فى كل من القصتين ، ألفينا المفارقة صارخة : فمدام دى كليف لا تعلم أن حبيبها مختبئ بين الأشجار يرقبها .. ومن ثم يستمر المشهد حالماً محلقاً فى عالم الصفاء !.. أما جوليا فهى التى تدعو حبيبها إلى لقائها فى الغابة ، وتمنحه القبلة التى لم يجرؤ على طلبها !.. والفارق بين « الرجلين » فى كل من القصتين لا يقل استرعاء للنظر : فنحن نرى « دى بريو » رجلا ضعيفاً خائراً ، بل حقيراً — على حد تعبير « ستندال » — فى حين كان كل من « دى كليف » و « دى نيمور » بطلا ، شهماً ، نبيلا !

هل الإنسان عفيف بطبيعته ؟

● على أن قصة روسو إذا لم تتطرف فى « السمو » إلى مستوى « مدام دى كليف » ، فإنها لا تتطرف من ناحية أخرى فى « الواقعية » إلى مستوى قصة أخرى من الروائع الكلاسيكية ، هى « مانون ليسكو » حيث لا يوقظ الحب الشهوانى أى وخز فى الضمير .. وحيث يستسلم

أشخاص القصة لغرائزهم دون أى وازع خلقى !.. فنى قصة روسو على الأقل نجد فكرة العفة ماثلة لنا على الدوام .. والعفة عنده هى « الحاسة الباطنية التى توجه إلى فعل الصواب » .. هى القانون الطبيعى أو الإلهى – (والمعنيان فى نظر روسو مترادفان) – الذى يسيطر على أفعالنا !.. فروسو يؤمن بأن الإنسان ، إذا استطاع أن يستخير ضميره بملء حريته ، سار دون مشقة فى الطريق الذى يرسمه القانون الإلهى .. فإذا كان لا يفعل ذلك فلأن المجتمع يحيد به بعيداً عن هذا الطريق !.. ومن هنا نرى جوليا وفولمار قد استطاعا أن يعيشا وفقاً « للطبيعة » – وبالتالى وفقاً لمقتضيات « العفة » – ، متى ؟ حين اختارا العيش فى الريف .. أعنى بعيداً عن المجتمع !

ولكن هل صحيح أن الإنسان ، إذا تحرر من المغريات التى يضعها المجتمع فى طريقه ، يكون بطبيعته عفيفاً ؟ وهل أشخاص روسو ، مثل جوليا أو فولمار ، فيهم طباع البشر الحقيقيين ؟ لو سئل روسو هذا السؤال فإنى أعتقد أنه كان يجيب بقوله : إن هؤلاء الأشخاص أكثر واقعية ،و « بشرية » ، من المنافق أو الداعر الذى صوره سواه من مؤلفى القصص فى ذلك العصر .. أمثال « لاروشفوكو ! »

وقد كتب روسو يصف الشعور الذى انتابه حين أعاد قراءة

« هيلويز الجديدة » بعد أن أتم كتابتها ، قال : « .. أما وقد فرغت من إعادة قراءة هذه القصة ، فإنى أستطيع أن أفهم لماذا تروقنى ، كما لابد تروق لكل قارئ سليم النفس والطوية .. ذلك لأنها تثير حولها جواً من النقاء .. النقاء غير الممزوج بالألم ، ولا الشرور ، أو الجرائم ، أو أعاصير البغضاء والكراهية .. فأنا لا أفهم كيف يمكن أن توجد أية متعة فى تصور أو تصوير شخصية نذل حقير !.. بل أنى لأرثى لأولئك المؤلفين الذين تحفل مآسيهم بالفواجع الرهيبة.. ولئن كنت على استعداد للاعتراف بمواهبهم وعبقريتهم ، غير أنى أحمد الله لأنه لم يمنحنى هذه المواهب والعبقرية ! »

وهو على حق .. فالناس الأبرار « موجودون » ! وهم إذا لم يظهروا كثيراً فى القصص ، فإنما سبب ذلك هو خشية المؤلفين أن يضيق القراء بوجودهم ، أو يتهموهم هم – خالقيهم – «بالنفاق» و « الرياء » اللذين نمقتهما جميعاً .. لكن الواقع أن الأشخاص « الطيبين » أو الأبرار ليسوا دائماً مجلبة للضيق والسأم ، فنحن لا نضيق بشخصية مسيو « ميرييل » فى (البؤساء) .. ولا بشخصيتى « أوجينى جرانديه » أو أمها مدام جرانديه فى قصة بلزاك المعروفة بهذا الاسم .. بل إن هؤلاء جميعاً – على العكس – يمتعوننا حقاً ، وأى متعة !

ذلك أن العفة التى تبعث الضيق والسأم هى العفة الزائفة ، لا العفة الحقيقية .. أما هـذه فتبعث البهجة والانشراح ، وكل

ما يلزمها كى تكون محبوبة أن تقترن بالموهبة عند الكاتب الذى يصورها !

وقد وضع فيها روسو ذوب قلبه ، فكفل لها الغلبة والنصر !

نقد « فولتير » للقصة

● على أن القصة لم تسلم من قلم « فولتير » الساخر ، فكتب يقول فى نقدها : « .. إن الشخصية الرئيسية فى القصة هى شخصية شاب سويسرى تلقى دراسة ضئيلة ، وراح يلقن ما تلقى لجوليا ، وهى ابنة « بارون » من نبلاء إقليم (فود) .. وإذا نحن نرى الشاب يتحدث إلى جوليا فى الحب .. وجوليا تمنح معلمها قبلة طويلة ، شديدة المرارة ، يروح الشاب يردد شكواه منها !.. وفى اليوم التالى يودع صاحبنا أحشاء فتاته « جنيناً » . وقد تحسب النساء أن هذه هى نهاية القصة ، ولكن هنا – أيها الرجال – عقـدة القصة الدقيقة، هنا فلسفتها الرائعة ، التى تتيح لها أن تستمر خمسة مجلدات أخرى بعد هذه النهاية ! » .

ثم يصف « فولتير » موقف « فولمار » وهو يواجه الشاب « سان بريو » .. على هذا النحو : « لقد كنت عشيق زوجتى ، وسوف تظل دائماً صديقها الصدوق .. لكنك ستحرص أيضاً على صداقتى أنا الآخر.. فلنعش ثلاثتنا معاً ، كمواطنين سويسريين طيبين . كأقارب متحابين .. كما لو لم يكن قد حدث شىء !..

ولتكن على ثقة من أن حياتنا على هذا النحو سوف تكون نموذجاً للفلسفة والسعادة ! » .

وهو نقد طريف ، لكنه ظالم !.. فبرغم كل حملات النقاد ، وسخريتهم ، فقد كان نجاح الكتاب خالداً .. حتى لقد جعل من روسو معلماً للجيل ، وقائداً « روحياً » له ، علم الناس حب الطبيعة، والحنين إلى الحياة البسيطة .. وصارت حساسيته ، التى كانت أشد حدة من حساسية الرجل العادى – حتى يمكن اعتبار أنها كانت عنده « مرضاً » من الأمراض ! – صارت القاعدة والنموذج لقومه، لعدة أجيال ..

وفى الفصل القادم يواصل الحب كشف وجوهه المختلفة لنا ...



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق : **اندريه موروا**

٣ ـ الحب الحَرام !

(العلاقات الخطرة)

الوجه الثالث .. من وجوه الحب !

● فى قصة « جوليا » رأينا روسو ، الخيالى ، يهرب من عصره ويصور الحب كما يريده أن يكون !.. أما فى هذه القصة – « العلاقات الخطرة » – فالمؤلف ، الواقعى ، « لاكلو » يعيش فى عصره ويصور الحب كما يراه فى المجتمع بالفعل !.. والمجتمع الذى عاش فيه لاكلو وصوره هو المجتمع الأرستقراطى الفرنسى فى القرن الثامن عشر .. مجتمع ينعم فيه الرجال والنساء بفراغ كامل ، لا يعرفون الكدح من أجل العيش ، ولا يسمح لهم بممارسة (لعبة) السياسة التى تشغل جزءاً كبيراً من وقت فراغ الرجل فى القرن العشرين .. فماذا يفعل الإنسان ، حين لا يجد ما يفعله غير أن .. يحب !؟ إن الحب يصبح عندئذ هواية كالشطرنج يتبادل فيها اللاعبان الغلبة ، ثم يغير كلاهما رفيقه فى اللعبة كى يمارس براعته وحيله مع آخر ، وهكذا .. !

إنها لعبة قاسية ، لا ترحم .. ولكن ، هكذا الإنسان !

المؤلف

● ومؤلف قصة (العلاقات الخطرة) هو الجنرال « كوديرلوس دى لاكلو » ، وكان عندما ألفهـا – عام ١٧٨٢ – ملازماً بسيطاً فى حامية مدينة (جرينوبل) لفت أنظار المجتمع الراق فيها بقوامه الطويل النحيف ، وبشرته الشاحبة ، وعينيه الزرقاوين ، وحساسيته المرهفة ، وطبعه النارى .. وكان من المعجبين بروسو كاتب ذلك العصر .. وقد يخيل لمن يقرأ قصته (العلاقات الخطرة) أنه كان هو نفسه « دون جوان » من فرسان الغرام الخطرين ! ولكن أغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، بل كان – مثل هنرى جيمس ومارسيل بروست – شغوفاً بالتحدث إلى النساء ، والإصغاء إلى أسرارهن وقصصهن .. والنساء عادة يأتمن على أسرارهن الرجال الفضوليين « غير المحاربين » ، أكثر مما يأتمن العشاق الذين يمارسون الحب فعلا ، لا قولا ، أو كتابة !.. وعنـدما نشر لاكلو فيما بعـد (العلاقات الخطرة) استطاع أهالى مدينة جرينوبل أو خيل إليهم أنهم استطاعوا التعرف فى أبطالها على بعض أشخاص مدينتهم الحقيقيين . الأمر الذى كفل للكتاب رواجاً كبيراً !

وقد اتهم بعض النقاد القصة بأنها تصور حياة حفنة من الرجال العابثين والنسوة العاهرات ، ممن لا يمثلون المجتمع كله بحال من الأحوال .. مثلما حدث فى فرنسا أخيراً فى الفترة بين عامى ١٩٢٠–

١٩٤٠ ، حين ملأ ثلاثون أو أربعون من المستهترين جو باريس ، وصحافتها بأنباء مغامراتهم وغرامياتهم ، فى الوقت الذى كانت فيه بقية الشعب تحيا حياة عائلية نظيفة بلا جعجعة ولا ضجيج !.. ويدعم أصحاب هذا الرأى حجتهم بأن الروائى يكون عادة أميل إلى الكتابة عن العاهرة منه إلى الكتابة عن القديسة ، فإن حياة الأولى أحفل بالحوادث والصور من حياة الثانية .. فضلا عن أن ضابطاً فقيراً مثل « لاكلو » لابد قد غالى فى تصوير الجانب المظلم من حياة النبلاء ، مدفوعاً بحقده المرير عليهم ، شأن أفراد طبقته فى تلك الفترة السابقة مباشرة لنشوب الثورة الفرنسية !

وقد أثارت القصة بالفعل عند صدورها « هياجاً » بين أفراد الطبقة النبيلة التى كانت موجهة ضدها .. فلم يبق شخص فى باريس وفرساى إلا وتاق إلى أن يعرف المؤلف الجرىء ! وساء رئيس « لاكلو » فى الجيش أن يكون مرءوسه الضابط روائياً « ماجناً » ، لكن الشاب كان بارعاً فى عمله متمكناً من فنه الحربى ، فشفع له ذلك لديه وأنقذه من غضبه ! ... ورغم تعرف الناس على شخصيات القصة بين أهالى (جرينوبل) ، فإن الخاصة منهم اعتبروا الكتاب عملا أدبياً غير مقيد بزمان أو مكان .. وقد فطن المؤلف إلى هذا فقال : « إن القارئ المجرب يستطيع بسهولة أن ينتزع عن شخصيات القصة أوصافها وثيابها التى تنطبق على بيئة معينة ،

ويراها نفسيات عارية قابلة لأن تلبس ثياب وأوصاف بيئته التى يعيش فيها ... » .

والغريب فى الأمر كله أن هذا المؤلف الناجح الذى ظفر كتابه بمثل هذا الرواج والتقدير ، لم يؤلف بعده كتاباً آخر !.. والأغرب من ذلك أنه وهو خالق شخصية فالمون (الماجن) ، كان فى حياته الخاصة على خلاف ذلك ، فقد تزوج وصار أسعد الأزواج ، وأشدهم تعلقاً بزوجته ! – كما يظهر من خطاباته إليها – وكانت هى أخت أميرال الأسطول الفرنسى ، وتدعى « سولانج دوبير ».. اصغ إليه وهو يقول لها فى خطاب : « إليك أدين بسعادتى طيلة الإثنى عشر عاماً الماضية ، ولا شك أن الماضى أكبر ضمان للمستقبل .. وإننى لسعيد بأن أراك تشعرين أخيراً بأنى أحبك . ولكن اسمحى لى أن أذكرك بأنه خلال الأعوام الماضية كلها لم يحدث ما يجعلك تشكين فى ذلك ! » .. ثم يمتدحها فى خطاب آخر لكونها « عشيقة » خلابة ، وزوجة كاملة ، وأم رقيقة .. فى وقت معاً !.. وحين تلوم نفسها على بدانتها يقول لها معجباً فى تورية لطيفة : « كلما صار لى منك قدر أكبر ، ازددت فى قلبى قدراً ! » .

وقد دامت عاطفته هذه نحو زوجته عشرين عاماً – الأمر الذى لا يحدث من رجل ماجن ! – وقد فكر لاكلو فى كهولته أن يكتب قصة أخرى يثبت بها أن السعادة الحقة لا توجد خارج

نطاق البيت والعائلة .. لكنه لم يحقق فكرته . ويرى أندريه جيد أنه حسناً فعل بعدم تحقيقها ، جازماً بأن لاكلو الروائى الساخر ، المولع بالمؤامرات والدسائس الغامضة ، لا يمكن أن يكون مخلصاً فى حبه للفضيلة .. بل لا شك أنه يضع يده فى يد الشيطان !.. بينما يميل « أندريه موروا » إلى عدم مشاركة زميله رأيه هذا ، وإن أقره على أن لاكلو قد عرف كيف يصور الشيطان فى قصته أروع تصوير ، وأنه برع فى وصف « جحيم » الحب الحرام !.. كما اتفق الكاتبان المعاصران فى أن لاكلو قد بلغ بقصته (العلاقات الخطرة) مرتبة .. « راسين » !

القصة

• الشخصيات الرئيسية فى القصة خمس :

الفيكونت دى فالمون : وهو دون جوان « محترف » خبير بفنون الغرام ، يستبيح لنفسه فيها ما يتورع عنه إبليس !

المركيزة دى ميرتوى : وهى فى طباعها واستباحتها وقسوتها توأم للفيكونت دى فالمون ، بل لعلها تفوقه وتبزه فى المناورات الشيطانية !

السيدة دى تورفيل : وهى حسناء من طبقة العامة ، تقية ، ومحتشمة ..

سيسيل دى فولانج : وهى عذراء ساذجة ، خرجت حديثاً

من مدرسة الراهبات .. تريد أمها أن تزوجها بأسرع ما فى وسعها من « الكونت دى جيركور » ، وإن كانت الفتاة تحب شاباً آخر هو الشيفالييه « دانسينى » !

ثم الشيفالييه دانسينى : وهو بدوره يحب سيسيل لكن المركيزة دى ميرتوى توقعه فى حبائلها .. فتتخذ منه عشيقاً ، دون أن تحبه !

فإذا بدأت القصة رأينا العلاقات الخطرة بين أبطالها معقدة متشابكة : فإن الكونت دى جيركور ، الذى تدخره أم سيسيل زوجاً لابنتها ، كان يوماً عشيقاً للمركيزة دى ميرتوى ، وخانها خيانة لم تستطع الشريرة أن تغفرها له حتى الآن .. ومن ثم فهى تتحين الفرصة للانتقام منه ، بغير رحمة !.. فتراها تلجأ فى هذا الشأن إلى فالمون ـ الذى كان بدوره أحد عشاقها الغابرين ، وظل صديقاً وشريكاً لها فى مؤامراتها ! فبينهما لا يوجد رياء كاذب ولا تظاهر خادع ، بل مشاركة قديمة فى المتعة ، قد تتجدد فى أية لحظة ، دون أن يكون للحب نصيب فيها .. مثلهما مثل اللصين اللذين يعملان معاً ، يحدوهما « تقدير » متبادل من أحدهما للآخر ـ فى عمله ـ لكنه تقدير لا يصل إلى حد الثقة !

وهكذا تكتب المركيزة خطاباً إلى « فالمون » تقول له فيه :
« .. ولعلك تعلم كم يعلق جيركور من آمال على عفة الفتاة التى يزمع أن يتزوجها .. فإذا استطعت إغواء سيسيل ، والإيقاع بها قبل الزواج ، أمكننا أن ننتقم من عدونا .. ونسخر منه !.. وفوق

ذلك فإن الفتاة تستحق أن تحظى بانتباهك ، فهى جميلة حقاً ، وفى الخامسة عشرة ... زهرة نضرة لم تتفتح أكمامها بعد ! » .

لكن فالمون لا يبدى تحمساً للفكرة فى البداية .. فإن الإيقاع بفتاة غريرة لم تر أو تسمع من الحياة شيئاً ، ليس بالمهمة الجديرة برجل مجرب مثله !.. ومن ثم فهو يكتب إلى المركيزة رداً على خطابها : « كلا .. فإنى الآن مشغول بمغامرة سوف يحقق لى نجاحها المجد والمتعة .. إنك تعرفين السيدة دى تورفيل ، وتعرفين تدينها وتقواها ، وحبها لزوجها ، ومبادئها الصارمة .. تلك هى القلعة التى أهاجمها الآن .. وهذا هو العدو الجدير بمثلى .. والهدف الذى أطارده ! » .

وكان فالمون يقيم وقتئذ فى الريف ، فى قصر عمة السيدة دى تورفيل ! وكانت هذه تقيم عند عمتها فى الوقت نفسه ، فاستنفد حصاره للمرأة التقية كل وقته وجهده .. مما أسخط عليه صديقته المركيزة !.. ماذا ؟ أيرتمى رجل مثل دى فالمون عند قدمى امرأة مثل دى تورفيل ؟

وتتلقى « دى تورفيل » خطاباً من مجهول يحذرها فيه من نيات فالمون ، لكنها تدافع عنه بحرارة تفضح مبلغ اهتمامها بأمره :
« أنه يحدثنى بثقة كاملة ، وأنا أعظه بصرامة تامة .. وكل من يعرفه يستطيع أن يتصور كم ستكون هدايته إلى الصراط المستقيم رائعة !. وعلى أى حال فإن الذى يمكننى أن أجزم به هو أنه ، رغم صلته

الدائمة بى ، وما يبديه من استمتاع بصحبتى ، لم يدع كلمة واحدة من كلمات الحب تفلت من فمه .. قد يحدث أنه يتملقنى أحياناً ، ولكن بلباقة يحسد عليها ! » .

وهكذا يتمكن الشيطان ، وهو يرتدى مسوح الرهبان ، من أن يواصل تلقين دروسه للقديسة !

• • •

● وتتشابك المناورات الثلاث : فيعهد الشيفالييه دانسينى – الذى فرقت الظروف بينه وبين الاتصال بحبيبته سيسيل – إلى فالمون بتوصيل رسائله إليها .. وهنا .. هنا فقط .. يغدو الإيقاع بالفتاة أمراً شائقاً فى نظر فالمون ، فإن خيانة « صديق » تغدق شيئاً من (التوابل) المشهية على إغواء فتاة بريئة ! وهكذا يبدأ فالمون مناوراته الشيطانية بأن يزعم لسيسيل الغريرة أن تسلمها خطابات حبيبها فى وضح النهار أمر عسير ، ومن ثم يحصل منها على مفتاح غرفتها .. كى يحمل إليها الوديعة تحت جنح الظلام !

وذات ليلة يتسلل إلى غرفتها .. ويجلس على حافة فراشها .. ويسرق منها قبلة .. ثم أكثر من القبلة ! .. وإذا هو قد أصبح عشيقاً للفتاة الجميلة التى تهبه جسدها ، بينما قلبها ملكاً لحبيبها دانسينى ! إنها تقبل هذه المشاركة الشاذة بغفلة طبيعية بالنسبة لسنها ! .. ومنذ تلك الليلة تستقبل فالمون كل ليلة مرحبة ، فيغويها طبقاً لخطة منظمة .. وحين تصبح ، تكتب لدانسينى خطاباً رقيقاً يفيض حباً ووجداً !

لكن هذا النجاح لا يقعد فالمون عن مواصلة مطاردته للمرأة التقية دى تورفيل .. وكان قد بلغ معها مرحلة التحدث إليها عن الحب ، وإغرائها بالإصغاء إلى حديثه ! .. وتتنبه المرأة فجأة لما أصابها ، فتحاول إنقاذ نفسها بالفرار ! .. لكن مقاومتها للداهية الماكر إنما تلهب رغبته وتضاعف من شوقه إلى إخضاعها ، بدل أن تيئسه .. فيكتب فى وصف شعوره بعد فرارها : « إننى لن أسترد سعادتى ورضاى قط حتى أنال هذه المرأة ، التى أكرهها وأحبها بنفس الانفعال ! .. وأن قدرى لن يغدو محتملا إلا فى اللحظة التى تصير هى فيها رهن مشيئتى .. وعندئذ ، وأنا فى أتم هدوئى ، سوف يغبطنى أن أراها تصبح بدورها فريسة لنفس العذاب والأهوال التى أقاسيها أنا الآن .. إن الساعة التى أحلم بها سوف تأتى حتماً ! » .

وكان يحق له أن يأمل خيراً .. فإن التعسة كانت قد تورطت فى حبه ، إلى حد اليأس ! .. ولكن كيف يتوصل إلى تحطيم آخر أسوار مقاومتها ؟ .. لمثل ذلك كانت « ترسانة » فالمون تحوى مختلف الأسلحة التقليدية : زعم الشيطان لها أن عزمه قد استقر ، بدافع من يأسه ، على اعتزال العالم .. والانزواء فى دير !

وأحدث التهديد فى المرأة الخجول أبلغ الأثر ، فرضيت أن تستقبله أخيراً .. وحين انفرد بها ، واجهها بتهديده الجديد المخيف : « دعينى أنالك .. أو أموت ! » .. لكنها تظل تبعده ،

وتروغ منه .. وإذ ذاك ، فى فحيح كئيب ، هامس ، يغمغم لها : « إذن .. لم يبق إلا الموت » ! .

فتسقط مغشياً عليها .. بين ذراعيه !

ويظفر بها !..

° ° °

● ثم تأتى مرحلة اليقظة ، والندم ، حين تكتشف دى تورفيل – التى كانت تحب فالمون متيماً بها – أنه بعد أن نالها ظل كالعهد به ، ذلك العابث الماجن الذى عرفته ، وأنه يخدعها .. فتعاتبه .. ويرد هو عليها بخطاب قاس .. فتدخل الدير ، يأساً ، وزهداً !

أما سيسيل فيكتشف حبيبها الشيفاليه دانسينى بدوره حقيقة ما حدث لها ، فيعمد إلى تحدى فالمون – الجانى عليها – ومبارزته. وقتله !.. وحين يصل نبأ موته إلى مسمع « دى تورفيل » فى ديرها .. تلحق به !

ويتخلى جيركور عن خطيبته سيسيل بعد أن تلوثت .. فتدخل الأخرى الدير وتصير راهبة ، تقضى بقية حياتها فى التعبد .. والتكفير !

أما المركيزة دى ميرتوى – مدبرة هذه المآسى – فتصاب بالجدرى .. لكنها تنجو من الموت ، كى تعيش مشوهة : بعين واحدة ، ووجه كريه مفزع !.. وتنتهى القصة بهذه العبارة : « أى إنسان لا يرتجف جسده هلعاً ، حين يتدبر البلايا التى قد تسببها علاقة واحدة خطرة .. أو حب محرم » ؟!



وحين انفرد بها ، واجهها بتهديده الجديد المخيف : « دعينى أنا لك .. أو أموت ! » ..

العلاقات الخطرة .. بين الخيال والواقع !

● تلك هى شخصيات قصة « العلاقات الخطرة » كما صورها « لاكلو » ..

فهل هى شخصيات يمكن أن يتصورها العقل ، وهل يمكن أن توجد طبقاً لمنطق الحياة ؟

نعم !..

بل إن التاريخ يحدثنا بأنها وجدت فعلا ، وفى أشخاص يعرفهم هو .. ونعرفهم نحن !

أما « الفيكونت دى فالمون » .. فقد وجد فى شخص الشاعر « بيرون » !

أما المركيزة دى ميرتوى .. فهى خليط من « ليدى ميلبورن » و « ليدى أكسفورد » ، اللتين كانت إحداهما « كاتمة سر » بيرون .. والثانية خليلته ! ولو قرأنا الرسائل المتبادلة بين بيرون وليدى ميلبورن لوجدناهما يتحدثان فيها عن ألاعيب الحب ، وحملاته ، ومناوراته بنفس اللهجة التى يتحدث بها الفيكونت دى فالمون والمركيزة دى ميرتوى !. اللهجة التى تعتبر كل مقاومة فى الحب صعوبة ، يستطيع « الخبير » أن يذللها ، بطريقته الخاصة !

الفرق الوحيد بين بيرون ، وفالمون أن الثانى أفسد سيسيل ، أما الأول فقد عفا عن « ليدى فرانسيس وبستر » ، فجنبها تلك

الهاوية !.. وهنا يحق لنا أن نتساءل : ما الذى يفسر شخصية فالمون ؟ وهل طبيعى أن يكون إنساناً شريراً إلى هذا الحد ، قاسياً فى حبه على هذا النحو ، بينما الحب يرهف الحس عادة ، ويزيد من رقة القلب ؟.. تلك هى مشكلة « الدون جوان » الذى من هذا الطراز ، وهى مشكلة نجد لها فى حالة بيرون تفسيراً واضحاً ، ومبرراً معقولا : فإن بيرون ، الذى خلق بطبعه عاطفياً ، قد انقلب مخادعاً لا يرحم فى اليوم الذى خانته فيه الفتاة التى أحبها وأخلص لها ! وهكذا يكمن وراء الحرب القاسية التى شنها على النساء عنصر وعامل « الانتقام » ! وهو الباعث الأول فى تكوين شخصية « الدون جوان » .. يليه باعث ثان ، هو النجاح الذى يصادفه الشخص فى اكتساب قلوب النساء ، والذى لا يلبث أن يشجعه على غزو قلوبهن لمحض إرضاء غروره وإعلاء مجده فى هذا الميدان !.. ثم يلى هذين الباعثين باعث ثالث : هو الشعور بالملل الذى يغرى بفتح ميادين جديدة ، والاشتباك فى « معارك » جديدة !.. وفى هذه الأحوال تكون القسوة ، والانتصار على البراءة والسذاجة ، وتخطى العوائق الأخلاقية والدينية ، أشبه « بالتوابل » التى تفتح شهية الدون جوان على موائد الحب .. فنرى فالمون يستمد لذته من تعذيب المرأة التقية مدام تورفيل ، ويصف شعوره بقوله : « نعم ، يلذ لى أن أرى وأتأمل هذه المرأة المحاذرة تتورط دون أن تشعر فى طريق لا رجعة منه ، تقودها منحدراته الخطرة بالرغم منها ،

وتضطرها إلى أن تتبعنى !.. وحين تتبين الخطر الذى يكتنفها تتوقف برهة ، وتنظر حواليها . فلا تجد سبيلا للرجوع أو التقهقر.. كل ما تستطيعه هو أن تتباطأ فى خطواتها ، ولكن لابد من أن تتبع الخطوة الأخرى ! وأحياناً لا تجرؤ على مواجهة الخطر الذى أمامها، فتغمض عينيها وتترك نفسها لرعايتى .. وكثيراً ما يمدها الخوف والرعب القاتل بالقوة على أن تبذل محاولة أخيرة ، فتلتفت إلى الخلف ، وتركض مسافة قصيرة .. لكن قوة سحرية لا تلبث أن تجذبها إلى نقطة أقرب إلى الخطر من النقطة التى كانت فيها حين حاولت التمرد والفرار » !

وأخيراً يبلغ فجور فالمون وقحته حدهما الأقصى ، حين يحلو له وهو راقد فى فراشه مع عاهرة أن يتخذ من ظهرها « منضدة » يكتب عليها لمدام دى تورفيل التعسة : « لم أشعر قط من قبل بمتعة وأنا أكتب إليك مثل المتعة التى أحسها الآن ! ولا تملكنى يوماً هذا الانفعال العذب الحاد الذى يتملكنى فى هذه اللحظة .. كل شىء حولى يزيد من نشوتى : الهواء الذى أتنفسه مفعم باللذة ، والمنضدة التى أكتب لك عليها – والتى تخصص لأول مرة لهذا الغرض ! – تبدو لى فى صورة مذبح الحب المقدس .. ما أجملها فى عينى !.. أقسم لك أنى أحبك على الدوام. ولتغفرى لى اضطراب مشاعرى ، فربما كان ينبغى ألا أسلم نفسى للذة لا تشاركينى

إياها !.. فلأتركك الآن كى أطفىء انفعالا يتزايد لحظة بعد أخرى بحيث يوشك أن يغدو أشد مما أحتمل » !

لكن فالمون كان ليصبح أقل شراً وقسوة لو لم تكن بجانبه « مدام دى ميرتوى » .. فحين تستيقظ فيه بقية من عاطفة رقيقة، تكتب هى إليه : « يبدو أنك قد وقعت فى هوى هذه المدام دى تورفيل ، ذلك النوع من الهوى الذى يجعل الرجل يرى فى المرأة صفات من السحر لا تملكها ! لكننى وأنا الخبيرة بك ، أعلم أنك غير قدير على الحب الطاهر أو الحب الرقيق .. غير قدير إلا على ذلك الحب الذى يحسه السلطان نحو سلطانته المفضلة ، والذى لا يمنعه أحياناً من أن يخونها مع جارية » !

وهكذا تقف له مدام دى ميرتوى بالمرصاد .. كتلة من الشر الخالص ، الذى لا أثر فيه لشعور ولا ظل فيه لشفقة .. فهى تبحث عن المتعة وحدها ، لكن هذا أهون شرورها ، فإنها إلى جانب المتعة تسعى إلى السيطرة ، والفوز .. وعند أية بادرة مقاومة تعمد فوراً إلى الانتقام !.. بحيث يغلب على الظن أنها عانت فى طفولتها وصباها نوعاً شديداً من مركب النقص لا يجد تعويضاً عنه إلا فى أفظع صور النقمة والشوق إلى تدمير الرجال والنساء ، والسخرية من بعضهم ، وتلويث شرف بعضهم الآخر أو قتله !.. وبغير هذا لا تستشعر رضى أو سعادة !

وفى الوقت الذى تستمتع فيه مدام ميرتوى بفجورها، تتنكر أمام المجتمع فى ثوب المرأة الفاضلة !.. فيشيد أهل التقى بورعها ، بينما هى تستقبل العشاق فى بيتها !.. وهكذا تبلغ فى الرياء درجة النبوغ ، حتى لتباهى فى خطاب منها إلى فالمون بقولها : « ماذا فعلت أنت ولم أفعل أنا أكثر منه ألف ضعف ؟ لقد أغريت وحطمت نساء كثيرات ، ولكن ما هى الصعاب التى حطمتها كى تبلغ غايتك ، بالنسبة إلى ما حطمت أنا من صعاب » ؟!

ورغم ذلك فإن هذه المتوحشة الحسناء تستطيع ، حين تريد ، أن تكون امرأة ترى عشيقها من فنون الهوى عجباً !.. اقرأ ما تصف به خلوة لها مع أحد عشاقها : « كان أمامنا ست ساعات نقضيها سوياً .. فاعتزمت أن أجعل منها كلها فترة ممتعة حقاً ، بحيث اقتضانى الأمر أن أتلون كل ساعة بلون جديد ، وانقلب بلا هوادة بين الرقة والعبث، والإقبال والإعراض، والمزاح والجد، والانفعال والفتور ... إلخ.. ولا أذكر أننى بذلت يوماً جهداً لإرضاء رجل ونجحت فيه، مثلما بذلت ونجحت فى هذه المرة!.. فإننا لم نكد نفرغ من العشاء حتى حلا لى أن أتصوره سلطاناً وسط حريمه الكثيرات. اللواتى تقمصت شخصياتهن، الواحدة بعد الأخرى، فكنت أتلقى مداعباته فى كل مرة بروح عشيقة تختلف عن سابقتها » !

• • •

• وبقدر ما كانت شخصية مدام دى ميرتوى تمثل الشر ، كانت شخصية «مدام دى تورفيل» تمثل الخير ، وكل ما يناقض طباع غريمتها! كانت رقيقة، مخلصة ، تعيسة ، وقديرة على أن تموت حباً ، وتفنى نفسها فى سبيل من تحب .. وأخيراً كانت على النقيض منها فى طبقتها الاجتماعية ، فهى من طبقة العامة ، بينما تلك من طبقة النبلاء .. وهنا يكمن مغزى الكتاب كله ، ومبلغ فضحه لفساد مجتمع الطبقة الراقية ، الذى كان من عوامل نشوب الثورة الفرنسية !.. فإن تلك الثورة لم توجه ضد الفساد السياسى وحده ، بل كانت موجهة ضمناً ضد الانحلال الخلقى الذى تفشى بين أفراد الطبقة الحاكمة ، والذى أثار فى البداية غضب الطبقة المحكومة ، ثم احتقارها ، ثم ثورتها فى النهاية !

تلك هى قصة « العلاقات الخطرة » وشخصياتها .. فهل تعتبر القصة أخلاقية ، أم منافية للأخلاق ؟

اقرأ ما يقوله «أندريه موروا» جواباً على ذلك: « جرى عرف أصحاب النظرة السطحية على اعتبار هذه القصة ومثيلاتها « غير » أخلاقية .. بينما الحقيقة عكس ذلك ، فالكاتب الأخلاقى من واجبه أن يصف المجتمع غير الأخلاقى ، كى يأخذ الناس حذرهم من مزالقه الخطرة .. وهو يخيف قراءه ببشاعة ما يصوره ، لأنه صادق، والصدق يخيف الإنسان !.. فالحب كما وصفه « لاكلو » وكما مارسه فى القرن الثامن عشر ، جدير بأن يسمى بالحب المنطوى

على حرب ، أو الحب المنطوى على متعة .. فهـو ينبع من نفس العقلية المستهترة التى كانت تنبع منها آراء أهل ذلك العصر فى شئون السياسة .. وهى عقلية كانت تؤمن بديانة « القدرة على كل شىء » والتجديد فى مقاييس المجتمع والعواطف والأخلاق التى كونتهـا الحضارة على مر القرون ! » .

وفيما يلى بعض المبادئ « الأخلاقية » التى استحدثها «المجددون» فى القرن الثامن عشر :

١ – المتعة خير خالص ، يجب أن يحاول الإنسان ممارسته بكثرة وحدة ، ما واتته الفرصة !

٢ – إذا رفضت امرأة دعوة إلى متعة ، فواجب الرجل أن يقنعها بالقبول .. ولكى يصل إلى هدفه هذا يجب عليه أن يحطم حصون دفاعها ، وهى : التدين ، والخوف ، والقناعة فى أمور الجنس ، والإخلاص .. وهـذا ما تأخذه مدام دى ميرتوى على عاتقها حين تخاطب سيسيل الساذجة بقولها : « إذن فأنت غاضبة وخجلى يا عزيزتى؟ وأنت تعتقدين أن مسيو دى فالمون رجل شرير لأنه يجرؤ على معاملتك كما لو كنت حبيبته، ويعلمك ما تحترقين شوقاً إلى معرفته ، فى حين كنت تريدين أن تحتفظى بهذا الشرف لحبيبك ؟.. لكن حبيبك هذا لا يستغل الموقف ، وأنت بمسلكه هذا لا تذوقين غير عذاب الحب ، دون متعه ... إلخ ! » .

٣ – إن قواعـد الأخلاق لا تنطبق على مخلوقات معينة تسمو فوق هذه « السخافات » !.. وفى هذا تقول مدام دى ميرتوى : « لست من أولئك النسـوة المخرفات اللواتى يبدو كأن الطبيعة قد وضعت حواسهن فى رءوسهن !.. وإنمـا أنا قـد وضعت لنفسى مبادئ خاصة هى ثمرة تأملاتى العميقة ، وليست ثمرة الصدفة .. أو حكم العادة » !

و « المخلوقات » التى تسمو فوق « سخافات » الأخـلاق هى تلك التى تتظاهر بعواطف زائفة لا تحسها ، كى تنعم بالمتع التى هى فى نظرها الحقائق الوحيدة فى الحياة .. وتدرس فى برود مواطن الضعف عند الآخرين ، كى تستخدمها للسيطرة عليهم ! – مثلما فعلت مدام دى ميرتوى ، ومسيو دى فالمون – فهل يحقق هـذا المسلك لأصحابه السعادة ؟

إن قصة «العلاقات الخطرة» ترينا بوضوح أن المسلك المذكور يعجز عن أن يحقق السعادة لأحد من الذين اتبعوه !.. فإن « مدام دى ميرتوى » نفسها تنتهى إلى الاعتراف بأن المتع الجسمانية تجلب الملل والسأم إذا لم تنعشها العاطفة الحقيقية .. وأن المتعة – التى هى الدافع الأوحد إلى اجتماع الجنسين –لا تكفى لتكوين رابطة بينهما، فلئن كانت تسبقهـا الرغبة – التى تقرب بينهمـا – فإنه يعقبهـا الاشمئزاز ، الذى يبعد أحدهما عن الآخر .. هذا هو قانون الطبيعة، الذى لا يقوى على تغييره سوى الحب وحده !

وإذا قارنا بين مغزى كل من قصة « العلاقات الخطرة » وقصة «جوليا» التى كتبها روسو ، خرجنا من المقارنة بأن الحب الحرام - كما صورته القصة الأولى - يولد مللا ووحشة كئيبة .. بينما الحب الرومانتيكى العفيف - كما صورته القصة الثانية - يغالى فى تجاهل حقائق اللحم والدم !

فهل من الممكن الجمع بين هذين اللونين من الحب ؟

هل من الممكن أن تجمع شخصية بين عفة « سان بربو » بطل قصة « جوليا » ، وعنف « فالمون » بطل قصة « لاكلو » ؟

هذا ما نجده فى قصص « ستندال » .. أو فى الوجه الرابع من وجوه الحب ... وموعدنا به الفصل التالى .

• • •



الحب العنيف ... بين الطهر والفجر !

● رأينا فى قصة « مدام دى كليف » الحب المنطوى على البطولة والشهامة .. وفى قصة جان جاك روسو الخالدة : « جوليا » ، الحب العفيف « الرومانتيكى » .. ثم رأينا الحب المحرم الفاجر ، وقد صوره الجنرال « دى لاكلو » فى قصة « العلاقات الخطرة » .. وخرجنا من القصتين الأخيرتين ، بأن الحب الحرام يولد مللا وكآبة ، فى حين أن الحب العفيف « يغالى » فى تجاهل الواقع ، وحقائق اللحم والدم !

وفى هذه المرة ، يكشف لنا الأديب الفرنسى الخالد الذكر « ستندال » عن وجه رابع من وجوه الحب .. يجمع بين النوعين : العفيف والفاجر ..والرومانتيكى والحرام!.. بين هيام « فرتر » وأشجانه ، وجرأة « دون جوان » وصراحته ..

إنه وجه الحب « العنيف » !.. وكفى ..

المؤلف

● إمام هذا الوجه من أوجه الحب هو «هنرى بيل» ، المعروف فى الأدب باسم « ستندال » .. وقد ولد فى مدينة (جرينوبل) بفرنسا سنة ١٧٨٣ ، من أب متزمت قاسى القلب ، ذى عقلية مادية وخلقة قبيحة .. وأم رقيقة القلب ، بارعة الجمال .. فشب الفتى يمقت أباه أشد المقت ، ويحب أمه أخلص الحب!.. وامتدت عواطفه فشملت أسرتيهما ، فأبغض أسرة الأب ، وأحب أهل الأم .. وكان جده لأمه – « جانيون » – أستاذاً للفلسفة ، وخالته « اليزابيث » شديدة الاعتزاز بالشرف علىطريقة نبلاء الأسبان ، فأورثته هذا الاعتزاز ، أو على حد تعبيره : « أنها قد كونت قلبى .. كان خلقها زبدة الشرف ، فنقلت إلى طريقتها فى الإحساس .. مما كان سبباً فى ارتكابى سلسلة من الحماقات السخيفة ، بدافع من مراعاتى لمقتضيات ذلك الخلق السامى ! » .. أما خاله « رومان » فقد كان على العكس مستهتراً ، فلقنه فنون الحب العابث الذى كان يدين به !

لكن « ستندال » نشأ طفلا مضطهداً ، سواء من أسرة أبيه ، أو من معلمه الخاص الذى اختاروه له ، والذى كان كتلة من النفاق والرياء .. الأمر الذى جعل التلميذ ينشأ معتنقاً فكرة راسخة : هى أن الإنسانية تتألف من فريقين متميزين : فريق « الخبثاء »

المرائين ، الذين يتحدثون دائماً عن الفضيلة ، وهم على خلق وضيع .. وفريق « ذوى النفوس الكريمة » الذين تفيض قلوبهم حباً وخيالا وشعراً ، وإن كانوا يصطنعون السخرية فى حديثهم ، خشية أن يتهموا بالرياء !.. وقد تفاقم بغضه للفريق الأول ، وحبه للثانى ، حتى بلغا درجة العنف التى تتسم بها كل عواطف الطفولة !

لكن العنف العاطفى لازم « ستندال » بعد مرحلة الطفولة .. صار قديراً على أن يتمنى « الموت » للذين يكرههم !.. فلما نشبت الثورة وحل عصر الإرهاب ، اعتنق المبادئ الجمهورية المتطرفة ، لا لشىء إلا لأن أباه كان ملكياً متطرفاً !.. وذات يوم دخل عليه أبوه يحمل نبأ إعدام « لويس السادس عشر » ، قائلا فى غضب : « لقد فعلوها .. قتلوه غيلة ! » .. ويحدثنا « ستندال » عن شعوره لحظتئذ بقوله : « لقد جرفتنى موجة من الفرح الطاغى ، لم أحس لها مثيلا فى حياتى ! ».. وهو شعور قاس ولا شك ، لكن « ستندال » كان دائماً يعجب بروح العنف المتوارثة عن عصر النهضة ، إعجاباً ليس مرده إلى طبيعة شريرة فيه ، وإنما مرده إلى احتقاره للضعف والتسامح اللذين عرف بهما جده « جانيون » ، مما جعله « لا يحس بالأخطاء ، ولا يحاربها ! » .

ورغم أن « ستندال » أثبت فى مناسبات عدة أنه ضعيف فى حبه ، فإنه كتب يقول : « الضعفاء فى نظرى مجانين » .. وفى شخصيات قصصه أمثلة كثيرة تعبر عن هذا العنف الذى اتصف

به .. فمن هذه الشخصيات من يقتل حبيبته ، ومن تدس السم لعدوها .. وأخرى تقبل شفتى حبيبها الميت ! وثالثة تحب لصاً ، ثم تصير بدورها من الخارجات على القانون !.. وكما تتضمن قصصه أمثلة من روح الشرف الأسبانى ، فإنها تتضمن أيضاً نماذج من عنف « مكيافيللى » و « بورجيا » وغيرهما من أشرار إيطاليا فى القرن الخامس عشر ..

هذا عن قصص « ستندال » .. أما عن شخصه ، فإن هذا العنف لم يجد له صدى فى تصرفاته ، ولعل هذا ما جعله ينشد متنفساً له فى رواياته !.. وأغرب من هذا أن « ستندال » كان برغم ميله إلى القوة واحتقاره للضعف .. خجولا !.. لا يلتقى بامرأة جديدة ، وتقتضى الظروف أن يقترب منها ، ويختلط بها ، حتى يرتجف فى البداية .. كما لو كان يقترب من حافة هاوية !

فرتر .. ودون جوان !

● وقصص « ستندال » تجيب على تساؤل حار طالما تساءله الناس ، وهو : هل يسلك الرجل إزاء المرأة مسلك « فرتر » ، أو مسلك دون جوان ؟.. مسلك العاشق الولهان الذى يحب ويتأوه ، أو مسلك الغازى الفاتح .. الذى يتميز بالشجاعة ، والصراحة ، والدعابة ، والحيوية ، وخفة الروح ؟

إن شخصية « ستندال » – وشخصيات رواياته – تجمع بين

المسلكين .. والمجتمع – فى قراره – يحترم « الدون جوان » ، وإن وبخه ولامه .. فى الوقت الذى يسخر فيه من العاشق الولهان الذى يتألم ويتأوه !.. لكن سخرية المجتمع لا تقاس إلى جانب السعادة الجارفة التى يستمتع بها المحب الذى من هذا الطراز .. فهو يبنى قصوراً فى الهواء – أو فى « أسبانيا » كما يجرى المثل – قصوراً تسكنها السعادة العذبة .. إذ أن الحب على طراز « فرتر » يفتح النفس لجميع الفنون والمشاعر الخيالية العذبة ، وللاستمتاع بالدنيا إلى أقصى حد .. أما العاشق « الدون جوان » فيعامل النساء معاملة « الأعداء » ، إذ الحب فى نظره نوع من الحرب ! فهو لا يتحدث إلا عن « الانتصارات » والهزائم .. ولا يكاد يستمتع بجزء من مسرات الحب الحقيقية التى يستمتع بها الآخر . فالدوق « دى ريشليو » – مثلا – لم ينعم قط بلحظة من لحظات السعادة الخالصة التى ذاقها « جان جاك روسو » أثناء خلواته مع مدام « دوديتو » فى الغابة !.. ولقد ظل « روسو » طيلة حياته يتذكر لمسة خفيفة لثوب امرأة ، أو ضغطاً رقيقاً على يد ناعمة ، بينما كان « ريشليو » إذا لقى امرأة ، يعجز عن أن يتذكر ما إذا كانت يوماً خليلة له أم لم تكن !..

سعادة « الدون جوان » محض نشوة حسية قصيرة خاطفة ، يخالطها شىء من الزهو ، أو هى أشبه بمتعة رياضة الصيد !.. أما سعادة المحب الولهان ، فإنها تغير وجه كل شىء وتجعله جديداً ، حياً ، مثيراً !.. بل إن سعادة « الدوق دى نيمور » حين صارحته



سعادة « الدون جوان » محض نشوة حسيه قصيرة خاطفة ، يخالطها شىء من الزهو ، أوهى أشبه بمتعة رياضة الصيد !..

« مدام دى كليف » بأنها تحبه ، لتفوق سعادة « نابليون » عند انتصاره فى معركة « مارنجو » !.. والخليلة التى يظل الرجل ثلاث سنوات يسعى إلى الظفر بها ، هى الخليلة بكل معنى الكلمة .. هى التى يقترب منها المحب الولهان وهو يرتجف !.. وهذه لا تخشى أن يزهد الرجل فيها قط .. أما تلك التى يظفر بها « الدون جوان » بسهولة ، فإنه لا يلبث أن يتثاءب فى وجهها بعد وقت قصير ، كما يتثاءب المتصررون !

وقد ظل « ستندال » طيلة حياته يتأرجح بين شخصيتى فرتر ودون جوان ، ويحلم بامرأة سامية النفس تبادله عاطفته .. لكن حلمه لم يتحقق ، فعاش أبداً يحب الحب !.. كتب مرة يقول : « لقد طالما كان الحب بالنسبة لى أهم شىء .. بل الشىء الوحيد فى حياتى ! » .. وفعلا خصص للحديث عنه كتاباً كاملا سماه « فى الحب » ، كما خصص لتحليله جميع رواياته ، ودفتر يومياته ..

المرأة تفكر فى الحب أكثر من الرجل

● والحب فى نظره نوعان : الحب العاطفى ، والحب الجسمانى .. لكن الأول وحده هو الحقيقى ، وهو يولد ويتطور طبقاً لقانون التطور التالى :

١ – فى البداية يولد الإعجاب ..

٢ – ثم يقول الشخص لنفسه : « أية متعة فى أن أقبل هذه المرأة وتقبلنى ! » ..

٣ – ثم تتلو ذلك مرحلة الأمل ..

٤ – وبعد الأمل يولد الحب ..

٥ – وعندئذ تبدأ مرحلة « التبلور » ، وهى التى يسبغ الشخص فيها على محبوبه ألف صفة وصفة من صفات الكمال .. وتحدث فيها داخل ذهن المحب عملية أشبه بالتى تحدث إذا وضعت غصناً مجرداً من أوراقه فى منجم للملح وتركته فيه شهرين أو ثلاثة ، فإنه يكتسى بعدها بطبقة من البلورات البراقة كالماس ، يختفى تحتها الغصن الحقيقى .. وهكذا يختفى شخص المحبوب الحقيقى تحت طبقة من الصفات الوهمية الخلابة التى يسبغها عليه الخيال غيابياً ، يوماً بعد يوم !.. وأثناء هذه المرحلة ، يخطر ببالك شخص المرأة الحبيبة فى كل مناسبة ، فإذا تحدث أمامك شخص عن إيطاليا مثلا ، وثب إلى ذهنك فوراً هذا الخاطر : « ما أسعدنى لو قدر لى أن أذهب إلى إيطاليا بصحبة هذه المرأة ! » .. وإذا كسرت ذراعك فى حادث ، كان أول ما يجول بخاطرك : « ما أجمل وأعذب أن تمرضنى هذه المرأة ! » .

٦ – ثم تتلو مرحلة التبلور مرحلة الشك .. فيسائل المحب نفسه : « ما الذى يثبت لى أنها تحبنى ؟ وأنها ستظل تحبنى ؟ » .. فإذا قتلت المحبوبة فى قلب محبها بذور هذا الشك وأمنته على حبها أكثر من اللازم ، تعرض حبهما للاختناق بأشواك السأم والملل ، وإن ضاعفت الثقة المتبادلة من متعته وجاذبيته ..

والتبلور أسرع عند المرأة منه عند الرجل ، لأنها تملك وقتاً للتفكير فى حبها أكثر مما يملك هو : فهى تفكر فى حبيبها أثناء جلوسها إلى آلة الحياكة ، أو وهى تنسج « التريكو » وأشغال الإبرة ، التى تشغل يديها دون فكرها ! أما الرجل فلو فكر فى حبيبته وهو يقود سيارته لعرض نفسه للموت ، أو لقضاء بضعة أشهر فى السجن !

ويرى « ستندال » ـ خلافاً لما يراه بعض الكتاب المعاصرين وعلى رأسهم « برنارد شو » ـ أن الرجل هو الذى يهاجم ـ فى الحب ـ والمرأة تدافع عن نفسها .. هو يطلب ، وهى ترفض .. وهو الذى يكون شجاعاً فى النهاية ، بينما تتحصن هى وراء خجلها !.. لكن هذه المقاييس تختلف الآن عنها فى القرن الثامن عشر ، بل والتاسع عشر .

غراميات « ستندال »

● والسؤال الذى يدور بالخاطر بعد هذا هو : هل ذاق «ستندال» نفسه هذا اللون من الحب العنيف الذى أذاقه أبطال قصصه ؟

كانت أول امرأة تعلق بها قلبه ممثلة جميلة فى أحد مسارح (جرينوبل) تدعى « ملموازيل كابلى » .. لكنه كان حباً ساذجاً كحب طلبة المدارس ، فقد كان « ستندال » وقتئذ فى السادسة عشرة .. فكان يتردد على المسرح ويصفق لها ، وإذا سمع أحداً

يذكر اسمها ارتجف كريشة فى مهب الريح .. وفى المرة الوحيدة التى قابلها فيها ـ بمحض المصادفة ـ كاد يغمى عليه !

وحين تركت « ملموازيل كابلى » مدينة (جرينوبل) إلى (باريس) حاول « ستندال » أن يعزى نفسه بالانشغال بأخت أحد أصدقائه ، وتدعى « فكتورين بيجيليون » .. لكنه لم يلبث أن غادر جرينوبل إلى باريس ثم إلى (ميلان) ، حيث أحب امرأة جميلة تدعى « انجيلا بيتراجروا » ، لكنه لم يجرؤ على مفاتحتها بحبه !

ثم عاد إلى باريس ، حيث عرف ممثلة أخرى تدعى « ميلانى لوازون » . وهو يصف فى يومياته خلوة له معها : « ذهبت لزيارة « ميلانى » وأنا أرتجف . وكلفتنى بإشعال النار فى المدفأة ، فسرتنى هذه المهمة ، الدالة على رفع الكلفة .. وبقينا معاً حتى الساعة الثانية . كنت سعيداً جداً ، ووددت لو أحست هى بمثل سعادتى !.. كانت رائعة وهى تسرد لى أقاصيصها الطريفة ، وقد جلست بجانبها ، أحدق فى عينيها ، ويدها فى يدى .. ولابد أنها أحست بمدى الانفعال الذى أثارته روحها الرقيقة فىّ ! وأن الفرح والغبطة اللذين أظهرتهما حين رأتنى ليثبتان أنها تحبنى !.. أما أنا ، فحسبى أن فمى وحده هو الذى كان يتكلم .. بينما كان قلبى مشغولا ، يشعر ! » .

وبعد بضعة أيام كتب يصف زيارة أخرى : « إنى عائد تواً من عند « لوازون » ، ويخيل إلى أنى لم أكن قط رائعاً مثلما كنت اليوم ، وأنا مرتد سترتى الأنيقة ورباط رقبتى الفاخر ، وقبعتى

الجديدة ، ولسانى منطلق لا يتلعثم .. لقد أشرقت روحى من خلال حديثى فأنستها قبح وجهى ، واشتركت أناقة ثيابى فى إخفاء ملامحى المنفرة .. » .

وظفر « ستندال » بالممثلة فى النهاية .. وحين سافرت إلى (مرسيليا) عام ١٨٠٥ ، لحق بها هناك .. لكن ظروفه اضطرته بعد حين إلى الارتحال إلى باريس ... وهناك اشتبك فى مغامرة غرامية جديدة مع « مدام دارو » ، زوجة الرجل الذى كان يعتبر رب نعمته !.. ثم عاد مرة أخرى إلى (ميلان) ، حيث التقى بمحبوبته القديمة « انجيلا بيتراجروا » ، وكانت قد تزوجت ، فاعترف لها بحبه القديم .. وحين استطاعت أن تتذكر – بصعوبة – الشاب الذى اعتادت أن تطلق عليه فى الماضى لقب « الصينى » ، سألته مستغربة : « ولماذا لم تصارحنى بحبك يومئذ ؟ » .. فلم يحر جواباً !

وبعد أن اتصلت العلاقة بينهما فترة اكتشف أنها تخدعه بلا تورع ، فهجرها نهائياً ، بعد أن ظل قلبه عالقاً بها – غيابياً – من سنة ١٨٠٠ إلى ١٨١١ ، وقد وصفها فى يومياته بأنها كانت سمراء رائعة ، حادة الشهوات .. وظل دائماً يعتبرها «الخليلة المثالية» !

وعلى أثر انفصاله عنها اشتبك « ستندال » فى غرام جديد – عذرى – مع من تدعى «ماتيلد دمبوفسكا» ، فأمده غرامه هذا بفيض جديد من المشاعر العذبة الرائعة .. وأضاف اسمها إلى قائمة

محبوباته الإحدى عشرة ، اللواتى راح يتسلى برسم حروف أسمائهن على الرمل بعصاه حين بلغ سن الخمسين !

لكن اللاتى بادلنه الحب من هذا العدد الكبير من النساء كن قلة ، أما الباقيات ، فيتحدث عن عواطفهن نحوه بصراحة وتواضع حميد ، شأن العشاق الحقيقيين . والواقع أنه كان متواضعاً حتى فى اختياره ، فإن خليلات هذا العاشق الرقيق كن جميعاً دون المتوسط على الأقل من ناحية الجمال .. إذ أنه لم يكن يعنى بجمال الشكل قدر عنايته بجمال الروح .. وقد وجد ضالته من هذه الناحية ، فكتب يصف « ميلانى لوازون » بأنها « ليست جميلة .. لكنها سامية » ، ووصف أخرى بقوله : « لم أكن أتصور أن مثل هذا الخلق الجميل يمكن أن يوجد على الأرض ! » .. والواقع أن أولئك النساء اللواتى ملأن حياة « هنرى بيل » الإنسان ، هن اللواتى ملأن فيما بعد صفحات قصص « ستندال » الروائى .

فلنستعرض موكبهن استعراضاً سريعاً :

« مدام دى رينال »

● قسم « ستندال » بطلات رواياته إلى فريقين : فريق تمثله المرأة الرقيقة العاطفية المتدينة ، التى تكتم عواطفها ، والتى يجد الرجل لذة فى قهرها .. أو بعبارة أخرى المرأة الفاضلة التى « تغلب على أمرها » !.. وهى التى كان « ستندال » يتمنى دائماً أن يحب واحدة من طرازها !.. أما الفريق الآخر فتمثله المرأة التى كان

« ستندال » يصير إليها ، لو أنه خلق امرأة !.. أى المرأة التى لها صفاته وطباعه . وقد جمع « ستندال » بين الفريقين فى شخصيات قصته الكبرى : « الأحمر والأسود » ، فجعل « مدام دى رينال » تمثل الفريق الأول ، و « ماتيلد » تمثل الفريق الثانى ..

تجرى حوادث القصة فى الفترة بين سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٠ .

وحين تبدأ ، نرى « جوليان سوريل » يدخل بيت « مسيو دى رينال » كمعلم لأولاده . و « جوليان » هذا شاب « ابن فلاح » شجاع ، مرهف الحس ، معتز بكرامته ، شديد التحمس لنابليون .. أما والد تلاميذه – وصاحب الضيعة التى يقع فيها البيت ، فى مقاطعة « دوفينيه » – فرجل جامد العواطف ، مادى النزعة ، ينظر إلى زوجته بترفع وتعال ، ويعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تحبه وتكرس حياتها من أجله !.. ونجد هذه الزوجة امرأة فاضلة ، لكنها لا تحب زوجها ، بسبب معاملته إياها على هذه الصورة المرذولة .. وهى تعتقد أن الرجال جميعاً من طرازه ، سخفاء ، لا يقيمون وزناً لغير الأمور المادية ، والتسابق على التفوق ، الحصول على الأوسمة والنياشين !

وحين تعلم الزوجة بنبأ المعلم الذى استدعاه زوجها لتعليم أولادها ، يزعجها الأمر أشد الإزعاج ، وتكون فى ذهنها صورة كريهة للمخلوق الذى استؤجر كى يعنف أولادها ويوبخهم ، لا لشىء إلا أنه يتقن اللاتينية !.. لكنها تسر حين تكتشف أن

« جوليان سوريل » ليس أستاذاً متعجرفاً ، وإنما هو شاب متواضع خجول ، أشبه بفتاة متنكرة فى ثياب رجل !.. أما هو فيبطن لها شعوراً بالبغضاء ، لمحض أنها زوجة رجل ثرى ، ويفسر صمتها بأنه من أدلة كبريائها !.. وهكذا تسير الأمور فى القصر الريفى فى البداية سيراً عادياً ، ولو كانت « مدام دى رينال » امرأة باريسية ، أو لو كانت من قارئات القصص ، لأدركت بمجرد وقوع بصرها على « جوليان » نوع الخطر الذى قد يعرضها له مجىء هذا الشاب إلى البيت .. لكنها كانت – كما أسلفنا – امرأة لم تعرف الحب من قبل وبفضل جهلها هذا كانت تحس سعادة خالصة فى حضور الشاب ، فتركت نفسها تنجذب نحوه دون أن تشعر !.. حتى اكتشفت الحقيقة الرهيبة ذات يوم فجأة ، حين أبدت وصيفتها « ميلا » إلى الزواج من « جوليان » . عندئذ فقط تنبهت الزوجة الفاضلة إلى اتجاه قلبها ، فساءلت نفسها جزعة : « هل يمكن أن يكون هذا الذى أحسه نحوه .. هو الحب ؟! » .. وأشعرها اكتشافها بالقلق ، وبالسعادة فى الوقت نفسه !.. وتغير فى نظرها وجه الريف المحيط بها ، فاكتسى ثوباً جديداً من الضياء والسناء .. لم يعد هناك شك فى الأمر : إنها « تبلور » جوليان فى خيالها ، وتسبغ عليه صفات الكمال والفتنة .. أما هو ، فلا يكاد يوقن من عاطفة المرأة نحوه حتى تغدو المسألة فى نظره مسألة زهو وخيلاء ، أكثر منها مسألة حب !.. فيجعل همه أن يكمل السعى ، ويظفر بالأرستقراطية العريقة التى أوقعتها الأقدار فى هواه ..

وذات ليلة – وقد جلسا فى الحديقة ، فى الظلام – تلمس يده عفواً يدها المستريحة على حاجز المقعد .. فتسحب يدها مجفلة .. وإذ ذاك يعقد الفتى عزمه على أن يمهد الجو للمسة التالية بحيث لا يعقبها انسحاب ولا إجفال !

وفى الليلة التالية يأتى إلى الحديقة وفى عينيه نظرة المقبل على مقاتلة عدو ! ولا يكاد يهبط الظلام ، حتى يتناول يد «مدام دى رينال» .. فتسحبها .. فيتشبث بها من جديد ! وتبذل المرأة محاولة أخيرة كى تسترد يدها من يده .. لكن اليد تبقى أخيراً فى اليد !

ويغمر الشاب طوفان من السعادة ، لا لأنه يحب المرأة .. وإنما لأن عذاباً رهيباً قد انتهى ، وأعقبه شعور بالانتصار !.. إنه ما يزال فى مرحلة «الحب من أجل الزهو» .. أما «مدام دى رينال» فهى على العكس منه ، لا تستكين يدها فى يده حتى يشل ذهنها عن التفكير ، وتترك تيار الحياة يحملها على متنه .. وحين يضطرها ظرف عارض إلى أن تسحب يدها ، تعود فتعطيه إياها بغير احتجاج !

ويكون طبيعياً بعد ذلك أن يمده تصرفها هذا بالمزيد من الجرأة !

وتسائل المرأة نفسها حائرة : «ماذا ؟.. هل يمكن أن أكون عاشقة ، أنا المرأة المتزوجة ؟!.. إننى لم أحس يوماً نحو زوجى شيئاً من هذا الجنون الأسود الذى يجعلنى لا أريد أن أبعد «جوليان» عن خاطرى !.. ثم إنه فتى يملأ نفسه الاحترام والتوقير لى .. كلا إن هذا إلا محض جنون عارض سوف ينقضى !» .

لكنها لا تراه مرة أخرى حتى تتملكها من جديد نشوة الفرح السحرى التى طرأت عليها فى الأسبوعين الأخيرين !.. ولما لم تكن قد قرأت من قبل أية قصة من قصص الحب ، فقد كانت تلك المشاعر كلها جديدة عليها ، لا تعكر صفوها ظلال الحقيقة ، ولا احتمالات المستقبل .. فتصورت نفسها تنعم بهذه السعادة الدافقة بعد عشر سنوات ، مثلما تنعم بها الآن !

الجنة والجحيم .. فى المخدع المعطر

● ويلعب «جوليان» دور «الدون جوان» من قبيل الواجب ، مندفعاً وراء شعوره بالزهو الذى يرغمه على أن يكون جسوراً ، فيهمس لها : «سيدتى .. سوف آتى إلى مخدعك الليلة ، فى الساعة الثانية صباحاً !» .

ويرتجف خشية أن توافق !.. وحين تدق الساعة فى جوف الليل دقتين ، يأخذ سمته إلى غرفتها ، يقوده إحساسه المضنى بأن عليه واجباً نحو كبريائه يجب أن يؤديه !.. ويدخل المخدع المعطر .. وهناك ينسى أن عليه واجباً ، ولا يعود يذكر إلا أن عدم الفوز بهذه المرأة الشهية يكون تعاسة كبرى !

وحين يغادر المخدع بعد ساعات ، يغادره وليس أمامه مزيد يطمع فيه .. أما هى فيخلفها وراءه سعيدة سعادة لا تكاد تصدق ، عاجزة عن مغالبة دهشتها من أن هذه السعادة كان لها فى الماضى وجود ، غفلت هى عنه !

ويمضى الأيام يتحول شعور « جوليان » من حب باعثه مجرد الزهو ، إلى حب عاطفى عارم جارف .. فقد كان شاباً ، وكانت هى فاتنة ، فلم يكن بد من أن يسلم الزهو سلاحه ويخفض جناحه !.. وتغدو حياة المرأة جنة وجحيماً .. جنة حين ترقد تحت قدميه .. وجحيماً حين يتعذر عليها أن تراه !.. لكن تبكيت ضمير الزوجة الفاضلة التقية لا يفتأ يلاحقها ويضطهدها ، فتقول لحبيبها وهى تذعن له مستضعفة :

« لقد كتب على الهلاك الذى لا نجاة منه .. أنت شاب ، وقد استجبت لإغرائى ، فالسماء تستطيع أن تغفر لك .. أما أنا فقد حق على الهلاك واللعنة .. علامة ذلك عندى أنى خائفة ! ومن لا يخاف أمام عتبة الجحيم؟.. لكنى بالرغم من ذلك لست نادمة ، ولو عاودتنى الظروف نفسها ، لارتكبت ما ارتكبت مرة أخرى ! » .

ويلغط الخدم بغرام سيدتهم .. ويتلقى الزوج المخدوع من أعدائه خطابات بغير توقيعات ، تنبهه إلى ما يجرى فى بيته !.. لكن الزوجة تظهر بديهة حاضرة فى الدفاع عن سعادتها ، وتأمين مركز حبيبها .. فإن المرأة الفاضلة كثيراً ما تظهر جرأة فائقة ، وحيلة واسعة ، حين تتذوق متعة الحب الصحيح !

أما « جوليان » نفسه فيدركه الخوف والفزع من افتضاح أمره فيحاول كبح جماح تهورها : « إن الحب يعميك ! ولئن كنت قد أنقذت الموقف اليوم ببراعة رائعة ، إلا أن الحيطة تقتضينا أن لا نقع

فى الفخ !.. فالبيت عامر بأعدائنا .. ومن الخير أن لا نلتقى الليلة ! » .. لكنها تجيبه فى اعتداد المرأة ذات الأصل العريق : « إذن فأنت لا تملك حتى الشجاعة ! » .

ويلتقيان .. ويقعان فى الفخ .. فيجبر الزوج العشيق على مغادرة البيت فوراً .. وبذلك ينتهى القسم الأول من القصة .

« ماتيلد دى لامول »

● فإذا كان القسم الثانى فقد انقضت على رحيل « جوليان » إلى باريس سنوات ، صار بعدها سكرتيراً لنبيل يدعى المركيز « دى لامول » .. وهنا يلتقى بالبطلة الثانية للقصة وهى «ماتيلد» ، ابنة المركيز ..!

و « ماتيلد » شقراء رائعة الجمال ، لكن « جوليان » حين يراها لأول مرة لا يعجب بها ، إذ يخيل إليه أن عينيها الفاتنتين تخفيان بروداً مثيراً !.. وهى قد تلقت تعليماً دينياً ، وتربت تربية محافظة ، لكنها تقرأ « فولتير » .. وهى تحتقر شبان طبقتها الذين يحومون حولها ، والذين يقلون عنها ذكاء ، لكنها تتوسم فى « جوليان » سكرتير أبيها أنه على خلاف الشبان الذين عرفتهم .. فتتودد إليه !

ويهمس الفتى لنفسه : « لشد ما أمقت هذه الفتاة الفارعة القامة ! » .. وتظل نظرته إليها صارمة لا تلين ، الأمر الذى يدهش « ماتيلد » ويثير فضولها ، وغيظها ! فهى تستشف من نظرته أنه يحتقرها ، ومع ذلك لا تقوى على أن تحتقره !.. أو أن تحتمل

إغضاءه المتواصل ، وعدم استجابة عينيه لعينيها .. بل إنها لتخاف نظرته .. بينما يهمس هو لنفسه : « ما أبعد الفارق بينها وبين التى فقدتها !.. لقد كانت « مدام دى رينال » طبيعية فى حركاتها وتصرفاتها ، حتى لقد كنت أفهم أفكارها قبل أن تفصح عنها . لم يكن يقاسمنى قلبها غير أطفالها . وهو أمر طبيعى - برغم ما قاسيت منه ! - فيالى من أحمق . لم يقدر النعمة التى كان يتقلب فيها حق قدرها !.. وما أوسع الشقة بين تلك المرأة . وبين هذه الجوفاء المتعالية التى لا تحب غير نفسها ! » .

تطارده بحبها .. حتى يذعن

● لكن « ماتيلد » كانت تمعن فى مطاردته كلما أمعن هو فى بروده ، وفى « احترامه » لها !.. فبدأ يتراجع عن عناده تدريجياً ، وينتبه إلى محاسنها . فيناجى نفسه : « يا إلهى ، لكم هى جميلة ! » .. ثم يسائل نفسه وقد استيقظ فيه طموحه إلى هذا « المجد » : « ترى .. أهى تحبنى ؟ » .. وأخيراً تصارحه الفتاة ذات يوم بحبها ، فيغبط نفسه : « هذا أنا ، الفلاح الفقير ، أسمع الاعتراف بالهوى من فتاة أخرى عريقة ! » .

ويجرف « ماتيلد » تيار العاطفة العنيفة ، فتضرب لجوليان موعداً ليلياً فى غرفتها التى لا يستطيع بلوغها إلا إذا أسند سلماً إلى الحائط الخارجى وتسلقه إلى نافذتها !.. وقد يفاجئه المركيز

- أو أحد حراسه - أثناء هذه المحاولة .. بل قد يقتل .. لكنه مع ذلك يقدم على المجازفة ، ويصير .. عشيق « ماتيلد » !

غير أنه يدهش حين يتبين أن حظوته بماتيلد لا تدخل إلى نفسه سروراً ونشوة ، ولا تبعث فيه أى إحساس بالسعادة .. وعبثاً يحاول استدرار هذه السعادة بالتفكير المنطقى ، فهو لا يفتأ يغبط نفسه على هذا الفوز بتقدير وإعجاب هذه المخلوقة العريقة المتكبرة .. ويمده هذا التفكير بشىء من فرحة الزهو ، لكنه يظل محروماً من الحب المبارك الذى تذوقه مع « مدام دى رينال » !

المشورة القاتلة

● ويصدم زهوه ، وشعوره بلذة الانتصار ، مشاعر ماتيلد .. فتحدث نفسها : « إذن فهو يحسب أنه قد صار سيدى ؟ هذا يكفى كى يجعل الحب كريهاً ! » .. وهكذا تمضى أيام يتبادل فيها الاثنان - دون أن يدركا - شعوراً بالكراهية الخفية .. لكن شبابهما لا يلبث أن يفرض كلمته ، فتذعن كبرياؤهما صاغرة !

ويبلغ الحب بالحبيبين أخيراً مرحلة السعادة المنشودة .. فتقص « ماتيلد » شعرها ، تضحية منها لأجل حبيبها ، وإظهاراً لعنف العاطفة المجنونة التى تكنها له !.. فيضطر أبوها المركيز إلى الموافقة على زواجهما ..

غير أن الحظ العاثر لا يلبث أن يوحى إلى المركيز بأن يستعلم من « آل رينال » عن مسلك الشاب أثناء إقامته فى قصرهم !.. وتستثير « مدام دى رينال » قسيسها ، فيثير عليها بذكر الحقيقة كاملة .. فلا يكاد خطابها يصل إلى والد « ماتيلد » حتى يعدل عن موافقته على الزواج !

تدفع حياتها ثمناً لوشايتها

● ويشتعل حقد « جوليان » على « مدام دى رينال » التى أفسدت – بغيرتها ! – زواجه .. فيسافر إلى حيث تقيم ، ويدخل الكنيسة التى تصلى فيها .. ثم يصوب مسدسه عليها ، ويطلق النار !

لكنها تنجو من الموت .. وتزوره فى سجنه كى تواسيه ! وفى محنته يدرك أنه لم يحب يوماً سواها ..

ولا تمضى على إعدامه بالمقصلة ثلاثة أيام ، حتى يقتلها الحزن عليه .. فتموت وهى تعانق أولادها !

وأما « ماتيلد » المفجوعة ، فتتقدم من المقصلة ساعة الإعدام .. ولا يكاد رأس حبيبها يسقط فى السلة ، ويرفعه الجلاد بين يديه ، حتى تتناوله منه .. وتطبع على الشفتين الهامدتين .. قبلتها الأخيرة !

• • •



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق : اندريه موروا

٥ ـ زنابق الوادى

نساء بلزاك اللواتى من لحم ودم
ونساؤه اللواتى من حبر وورق !

بين حب الكهولة ... وحب الشباب

● رأينا فى قصة « جوليا » كيف هرب « روسو » ، الخيالى ، من عصره ، ليصور الحب كما يريده أن يكون : الحب العفيف !.. ثم رأينا فى قصة « العلاقات الخطرة » كيف صور الجنرال « لاكلو » الحب الحرام الفاجر .. وعرفنا بعد ذلك الحب العنيف كما صوره « ستندال » فى قصة « الأحمر والأسود » .. الحب العنيف فى طهره وفجوره معاً !.. وفى هذه المرة ، نشهد خلال حياة « بلزاك » ، وخلال روايته المشهورة « زنبقة الوادى » ، حب الشاب الخجول المحروم ، لامرأة فى سن أمه !.. ثم حيرته حين يعلق قلبه بامرأة أخرى تصغرها ، فى وقت تقترب فيه العشيقة الأولى — العجوز — من حافة الأبدية !

ملهمات الأدباء

● تحتل قصص « بلزاك » منزلة رفيعة هامة فى تاريخ الحب فى فرنسا ، بحيث يصعب دراستها فى فصل واحد قصير ، خاصة وأن الشخصيات النسائية التى خلقها ، من الكثرة والتباين بدرجة تدعو إلى العجب .. وإذن فخير سبيل للإحاطة بها هى المقارنة بين بطلات قصصه وبين النساء اللواتى أوحين له بهن .. وهى مهمة عسيرة ، لأن التغييرات والتعديلات التى تطرأ على الواقع فى ذهن الفنان الخالق غريبة ومعقدة .. لكن المؤلف يعمد أحياناً إلى فك رموز التفاعلات الخفية التى أصابت الواقع فأحالته فناً .. مثال ذلك ما نجده فى مفكرات « مارسيل بروست » من إشارات ترشدنا إلى أن « لورا هيمان » هى المرأة التى أوحت له بشخصية « أوديت دى كريس » الروائية .. وإن شخصية « أدريان دى جرمانت » قد استمدت جمالها من « الكونتس جريفول » ، وحكمتها من « مدام ستراوس » ، وبديهتها الحاضرة من « الكونتس دى شيفينيه » ... إلخ . كذلك نجد فى مسودات « الزنبقة الحمراء » — لأناتول فرانس — الخيط الذى يقودنا إلى التعرف فى شخص « مدام أرمان دى كايافيه » على المرأة التى انتحلت على الورق شخصية « تيريز مارتان بليم » !

« أما عند « بلزاك » فنحن نتبين بين بطلات قصصه ملامح صديقتيه « جورج صاند » و « مارى داجول » .. كما نستطيع أن

نطبق شخصية « مدام دى مورسوف » بطلة قصته الكبرى « زنبقة الوادى » على عشيقته الأولى « مدام دى برنى » .. وشخصية « الدوقة دى لانجيه » على عشيقته التالية « الدوقة دى كاستري » .. بحيث يمكن الجزم بأنه لو لم يعرف هذه وتلك فى حياته ، لما كتب روايتيه الرائعتين .

وعلى هذه الوتيرة يبدو من الممتع أن نتابع المقارنة بين نساء « بلزاك » اللواتى من لحم ودم ، ونسائه اللواتى من حبر وورق !

« بلزاك » الرجل

● عندما نقرأ صور الطفولة فى قصتى : « زنبقة الوادى » ، و « لويس لامبير » – التى يؤكد « بلزاك » أنها انعكاس لطفولته هو – نجدها حافلة بالآلام .. برغم أن « بلزاك » لم يكن بالطفل الذى تحفل حياته بأسباب الشقاء ، إذا قيس بطفل مثل « ديكنز » كان يجلل طفولته العار والفقر معاً !.. فعندما ولد « بلزاك » عام ١٧٩٩ كان أبوه يحتل مركزاً محترماً وينعم برغد العيش . ولكنه كان متزوجاً من امرأة تصغره باثنتين وثلاثين سنة ، هى « لورا سالومبيبه » التى يمكن اعتبارها المسئولة عن تعاسة ابنها « بلزاك » فى طفولته .. فقد كانت ذات حسن رائع ، وثقافة ممتازة ، ومزاج مترف ، لكنها قاسية القلب تميل إلى العبث ، حتى لقد أثارت حول سمعتها الشائعات والأقاويل بين جيرانها ، فنسبوا

أبوة طفلها الثانى « هنرى » إلى غير زوجها !.. وقد احتفظت فعلا لهذا الطفل الأصغر – ابن الهوى ! – بالقدر الأكبر من حنانها ورقتها ، فى الوقت الذى كانت فيه تحرص دائماً على إبعاد ابنها الأكبر « أونوريه » عن البيت !.. ورغم ذلك فإن هذا لم يحقد عليها أو يحمل ضغناً ضدها بسبب هذا كله ، بل ظل يكن لها حباً بنوياً كاملا ، يخالطه شيء من الخوف لازمه حتى كبر ، فصار وهو رجل ناضج لا يقترب منها بغير أن يرتجف .. وقد أشار أكثر من مرة فى قصصه إلى ذلك الشعور بالحاجة إلى الحماية النسائية ، الذى يحسه أولئك الذين حرموا حب الأم الصادق ..

من الضعف والكسل .. إلى الصحة والمرح

● ثم ألحق « أونوريه » من سن الثامنة إلى الرابعة عشرة بمدرسة داخلية فى (فندوم) ، فكان خلال تلك الفترة أكسل التلاميذ وأقلهم نشاطاً وأكثرهم شروداً وتأملا .. ومن ثم أكثرهم نصيباً من العقاب ! وقد أكب على المطالعة إلى حد أنه تبدل من فتى بدين مرح إلى آخر نحيل شاحب ، حتى اضطر مدير المدرسة لإرسال خطاب إلى أسرته ، عام ١٨١٣ ، يرجوها فيه استعادة «أونوريه» إلى كنفها للعناية بصحته .. وسرعان ما استرد « بلزاك » عافيته ، ثم أكمل دراسته فى (تور) ، ثم فى باريس ، حيث كان أبوه قد حصل على منصب فيها . وحين بلغ الفتى سن السابعة عشرة التحق

بمكتب موثق عقود ، للعمل فيه .. وترينا صورته التى رسمت له فى تلك الآونة أنه كان حسن الخلقة ، ذا عينين براقتين ، رقيقتين ، وتعبير وجه صريح ينم عن صحة موفورة .. وقد كان فعلا مفرط المرح صاحب الحيوية ، لكنه لم يعتبر نفسه شخصاً سعيداً .. بل كان مرحه وحيويته يخفيان عواطفه الملتهبة المكبوتة .. فقيم كان يطمع ؟.. كان يطمع فى شيئين : الشهرة ، والحب !.. وهما أمنيتان كانتا بعيدتى المنال بالنسبة إلى شاب مغمور يعمل فى مكتب موثق عقود ، ولا تعبأ بالنظر إليه نساء باريس الفاتنات !

اقرأ ما يقوله فى خطاب إلى أخته « لورا » التى كانت - مثل أخوات كثير من العباقرة - كاتمة سره وحليفته : « هذه الطاحونة الدائرة التى يسمونها الحياة .. آه لو بعث أحد شيئاً من الدفء فى هذا الوجود البارد .. إننى لم أنتج بعد أزهار الحياة ، بينما أنا فى الفصل الوحيد الذى فيه تزدهر .. فماذا تجدينى الثروة ومتعها فى سن الستين ، حين أكون قد استنفدت حياتى ولم أعد أستطيع أكثر من أن أشهد غيرى يحبون ؟!.. حين أكون قد أكلت طعامى ولم يبق إلا أن أجلس ساكناً لأرى الآخرين يأتون ليأكلوا . أواه ، إننى جائع وليس ثمة ما يشبع شهيتى ..! » .

يرفض الزواج والمال .. فى سبيل الأدب !

● وحين بلغ سن العشرين عرض عليه أبوه أن يزوجه ابنة أحد كبار الموثقين ، كى يرث عنه مكتبه فيما بعد . لكن الفتى أجاب

بأنه منذ صباه قد عشق الأدب والكتابة ، ولا يريد أن يصير موثقاً !.. فسخطت عليه الأسرة ، وأحنقها رأيه ، وصارت أمه القاسية تهزأ به وتسخر .. ولم تقف فى صفه غير أخته « لورا » .. ولما كان ذا إرادة حديدية فقد ربح المعركة ، فسمح له أبوه - رغم احتجاجات أمه - بأن يجرب مواهبه فى الأدب لمدة عامين ، يعطيه خلالهما ألفاً وخمسمائة فرنك كل سنة . فإذا لم يستطع بعد فترة التجربة أن يثبت نبوغه ويحصل على دخل كاف ، تعين عليه أن يعود إلى مهنة الموثق !

وقبل « بلزاك » شروط أبيه ، فاعتكف فى سطح بيت عتيق بشارع « ليديجيير » حيث عكف على الكتابة بغير انقطاع ، كالمحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، يدفعه حافز قوى إلى أن يتحدى باريس بأدبه !.. لكنه بعد محاولة فاشلة فى ميدان كتابة المأساة التمثيلية انتقل إلى ميدان القصص الغريبة التى تثير الرعب ، مثل القصص التى كان « فيكتور هيجو » يكتبها فى تلك الآونة ذاتها .. ولكن رغم موهبة « بلزاك » الشاب وعبقريته ، كانت تنقصه المادة ، والخبرة والموضوعات . كان عليه أن يجرب الحياة والحب .. وهنا تظهر المرأة الأولى فى حياته !

مدام دى برنى

● فى بلدة (فيلباريسى) حيث انزوى والد « بلزاك » ، يقضى فى هدوئها أعوامه الأخيرة ، كانت تعيش امرأة فى الخامسة

والأربعين تدعى « مدام دى برنى » ، واسمها الخاص « لورا » — نفس اسم أم « بلزاك » وأخته !

كان أبوها موسيقياً ألمانياً متصلا بالملكة «مارى انطوانيت» ، فلما عمدها اعتبرتها الملكة ابنتها فى المعمودية .. وحين كبرت تزوجت من نبيل شرس ذى نزوات ، أنجبت منه تسعة أبناء !.. ولم تكن « لورا دى برنى » جميلة ، وكان أقبح ما فيها أنفها الكبير .. لكنها كانت ذات نعومة خلابة ، أضاف إليها جو البلاط الفرنسى حضور البديهة والمرح وشيئاً من السخرية .. أما « بلزاك » فكان حين التقى بها مراهقاً يحلم بالحب ، ويقرأ كتب روسو « جوليا » و « الاعترافات » ، فيقضى أيامه باحثاً عن خليلة له من طراز خليلة روسو « مدام دى فارين » !

لكن خجله كان يعوقه عن الظفر بها فى البداية ، أو كما يصف نفسه حينذاك : « هكذا أنا ، وهكذا سأظل دائماً : خجولا إلى الدرجة القصوى ، وعاشقاً مجنوناً بحبه ، وعفيفاً إلى الدرجة التى لا أجرؤ معها على أن أقول لامرأة : « إنى أحبك » !.. وأعترف أنى أبعد ما أكون عن الصلاحية للحب ، فليس لى مظهر العاشق ولا مسلكه .. لا أملك الكياسة ، ولا الجرأة ، ولا روح العدوان .. أو بعبارة أخرى أنى مثل بعض الفتيات اللواتى تبدو الواحدة منهن خجولة غبية رقيقة خرقاء .. فى الوقت الذى تخفى فيه تحت هذا القناع ناراً تحرق القلب ، والبيت ، وكل شىء !.. لكنى مهما

أطنبت فلن أبلغ فى وصف خلقى ما بلغه كاتب عظيم هو « روسو » ، فاقرأ وصفه لنفسه فى اعترافاته . تفهم كل شىء ! » .

لكن « بلزاك » استطاع أن يتغلب على خجله بأن يخاطب المرأة بالمراسلة ، مدفوعاً إليها بحرمانه الطويل من الحب الأموى ، وشوقه إلى امرأة ناضجة تلقنه ما يجهل من أمور الدنيا .. فكتب إلى المرأة التى فى الأربعين ، ربة الأسرة الكبيرة المتشعبة ، رسائل من نار ، قال فى أولاها : « لست أنتظر منك حباً ، ولا إعجاباً ، ولا سخرية ، ولا أنفة ، ولا احتقاراً ، لكنى كنت دائماً أومن فى أعماق كل امرأة شعوراً يقرب من الرقة والصداقة . هو الحنان . هو الشفقة الكريمة التى تمد يدها للمجانين كما تمدها للتعساء .. فوداعاً سيدتى وداعاً ، واسمحى لى — بدلا من العبارات التافهة المألوفة التى يختم الناس بها الخطابات عادة — أن أودع هنا روحى كلها ، روحى النقية غير الموصومة أو الملوثة ، التى أجرؤ أن أقدمها لك كهدية من أطهر الهدايا التى يستطيع إنسان أن يهديها أو يتلقاها .. فوداعاً ! » .

ولعل « مدام دى برنى » قد تلقت هذه الرسالة بالدهشة ، لكنها أرسلت إلى صاحبها رداً عليها ، الأمر الذى لم يكن ينطوى على شىء من الحذر ..

الظفر بالجسد !

● ومن فوره صار « بلزاك » الشاب أكثر جرأة ، فكتب إليها يقول : « حين رأيتك فى المرة الأولى ، أثار مرآك حواسى وأنعش

خيالى إلى حد صورك لى امرأة كاملة الصفات .. هكذا يمكنك أن تعتبرى سنواتك الخمس والأربعين كأن لا وجود لها فى نظرى ، أو فلأقل إننى إن تنبهت إليها لحظة ، فإنما لأنظر إليها كبرهان على قوة عواطفى ، بينما أنت تحسبينها كفيلة بمحو سحرك . إن سنك التى قد يمكن أن تجعلك أضحوكة فى عينى لو لم أكن أحبك ، لهى على العكس رباط يربطنى بك بحكم شذوذه ومناقضته للآراء المألوفة .. »

ثم تلت ذلك بين الاثنين جلسات ، ومحادثات ، وساعات أنفقاها فى القراءة معاً .. ومقابلات ليلية فى الحديقة فى غيبة الزوج !.. وفى خلال أسابيع معدودة بلغت هذه المغامرة غايتها الطبيعية :

« أواه يا (لورا) .. إننى أكتب إليك فى منتصف ليلة تملأ قلبى فيها صورتك وتطاردنى فى سكونها ذكرى قبلاتك المجنونة . ولكن أى أفكار يمكن أن تواتينى فى ظرف كهذا ؟.. لقد بددتها أنت كلها من رأسى .. نعم ، إن روحى بأكملها قد صارت مرتبطة روحك .. أواه ، إننى محاط بسحر عجيب خلاب ، لا أرى غير المقعد الخشبى الذى كنا عليه ، ولا أحس غير ضغط جسدك الناعم على جسدى .. والأزهار التى أمامى رغم ذبولها تحتفظ بأريج مسكر ، أنك تفضحين مخاوفك وتعبرين عنها فى لهجة تمزق قلبى . ولكننى واثق الآن مما أقسمت لك عليه ، فإن قبلاتك لم تغير من الأمر شيئاً .. ولكن لعلنى تغيرت ، فإنى أحبك إلى درجة الجنون ! » .

إلى هنا وكل شىء يبدو طبيعياً للغاية ، لكن البقية أكثر طرافة .. فإن « مدام دى برنى » التى عاشت فى البلاط الملكى والتى سمعت من أمها – التى كانت وصيفة الملكة – ألف قصة وقصة عن النظام القديم ، والتى عاشت خلال الثورة فى ظروف روائية خيالية واحتفظت بالكثيرين من الأصدقاء الارستقراطيين فى مجتمع ما بعد الثورة .. تستطيع أن تعلم « بلزاك » الكثير عن الحياة والمجتمع !

وقد كان صاحبنا ذا فضول قوى عجيب ، يهتم بأن ينمى معارفه فى كل باب : فى الأعمال ، والسياسة ، وأزياء النساء ، وأثاث البيوت ، ومبانى المنازل ، والتاريخ المقارن وخفاياه .. وقد كانت « مدام دى برنى » غنية بالذكريات فى جميع هذه الموضوعات .. فكم من قصة أسرت له بها إذن بين القبلة والقبلة ، على مقعد الحديقة الخشبى ؟! لكنها لم تزوده بالموضوعات فحسب ، وإنما زودته أيضاً بالجرأة على معالجتها ، وقد كان فى تلك الآونة فى حاجة – أكثر من أى شىء آخر – إلى فيض من الرقة والإعجاب ، وإلى امرأة تؤمن بعبقريته فى غير تحفظ .. وكانت « لورا دى برنى » هذه المرأة ، فأشعرت « بلزاك » بقوته فى هذا الصدد .. حتى لقد كتب بعد وفاتها يقول : « فى بداية حياتى كانت هى لى أماً حقيقية .. يا إلهى ، لم تعد توجد روح واحدة تفهمنى .. فقد كانت هناك روح واحدة فقط ! » .

ولم يكن أسلوب مدام دى برنى ممتازاً ، بل كان تافهاً مألوفاً

شيئاً بهديل النساء العاشقات ، الذى هو بمثابة « تمرينات صوتية » أكثر منه عبارات !.. لكن التأثير الأدبى على « بلزاك » ، للمرأة الأولى التى عرفته على حقيقته ، كان رغم ذلك رائعاً !.. فقد كانت هى التى أعطته – بقصصها – تلك الفكرة الثمينة المبتكرة فكرة تأليف روايات تصف عصره على نسق روايات «والترسكوت» .. وبناء على نصيحتها أقام بلزاك فى « فوجير » ، الضاحية التى ألهمته مادة كتاب من أروع كتبه . ولعل الأدب ما كان ليحظى ببلزاك لولا هذه المرأة ، فإن كثيرين من العباقرة يموتون دون أن يعبروا عن أنفسهم .. لكنها لم تنفرد وحدها بهذا الشرف ، فقد خلفتها كثيرات أكملن رسالتها ..!

مدام دى كاسترى

● كانت ملهمة بلزاك الثانية هى « الدوقة دابرانتى » التى كان اسمها الشخصى أيضاً « لورا » ، والتى لعله أحس بجاذبية نحوها مدفوعاً بسحر هذا الاسم فى وعيه .. ولم تكن هذه تصغر « مدام دى برنى » ، كما كانت تفوقها قبحاً ! كانت صورتها الجانبية كالفرس ، وصوتها كالحيزبون العجوز .. لكنها كانت بالنسبة لبلزاك ذات قيمة كبرى ، فقد كانت تعرف نابليون ، وكانت خليلة « مترنيخ » .. وقد حكمت بالاشتراك مع زوجها حكومتى أسبانيا والبرتغال !

أما الملهمة الثالثة لبلزاك فكانت مدام « زولما كارو » زميلة أخت بلزاك فى المدرسة الداخلية .. وقد كانت – من بين ملهمات « بلزاك » – أكثرهن حصافة فى الرأى ، ومناعة فى المنال .. فلم يجرؤ أن يتحدث إليها فى الحب .. وقد كتبت إليه تقول : « لست أريد – ولم أرد يوماً – الصداقة الممتعة التى تقدمها للنساء اللواتى يفضلننى ألف مرة . وإنما أنا أطمح إلى عاطفة أسمى ، هى أن أحظى بتقديرك الكافى بحيث تجعل منى امرأة « احتياطية » تستجيب فوراً لندائك ، حين يزعج بهجتك طارىء غير متوقع ، أو تجرح قلبك خيبة أمل مفاجئة ، فتناديها مستغيثاً .. » .

تولع بإثارة الغرائز .. دون إشباعها !

● وقد كان عند وعدها .. وإن جميع مراسلاتها مع بلزاك لتوحى بنبل أخلاقها وذكائها المتوقد .. ولكن يبدو أنها أمدته بمادة أدبية أقل من المادة التى أمدته بها كل من « لورا دى برنى » أو « لورا دابرانتى » .. أو عشيقته الرابعة « المركيزة دى كاسترى » ، التى كتبت إلى « بلزاك » عام ١٨٣١ ، منتحلة اسماً مستعاراً لامرأة إنجليزية – كما كتبت إلى « سانت بيف » حين أصدر أشهر كتبه ، وكما كتبت إلى روائيين كثيرين فيما بعد – وقد أجاب « بلزاك » على خطابها ، ثم انتهى الأمر بها إلى أن باحت لبلزاك باسمها الحقيقى ، واستقبلته فى مخدعها الذى قضت فيه الشطر الأكبر من حياتها

طريحة الفراش ، نتيجة لإصابتها فى حادث صيد .. والمرض عند النساء يضفى عليهن مزيداً من السحر . وهكذا وقع بلزاك الساذج الملتهب فى هواها إلى أخمص قدمه . لكنها كانت مغامرة غير موفقة ، فقد كانت المرأة عابثة مولعة بإثارة غرائز الرجال ، فى الوقت الذى تعتزم فيه ألا تشبعها !.. ومثل جميع النسوة المثريات ، كلفت « مدام دى كاسترى » بلزاك كثيراً من المال ، فإنه لكى يرضيها صار ينفق ببذخ ، ويحتفظ بخادمين ، ويشترى حصانين ، ويحجز لنفسه مقصورة دائمة فى الأوبرا !.. فكانت النتيجة أنه تورط فى الديون ، وتورط فى الحب . فلم يحصل منها فى مقابله على شىء .. بل صارت تسخر منه . فتجبره على السفر والترحال ، وتستدعيه إلى « إكس ليبان » حيث كانت تستجم .. لكنها لم تسلمه من نفسها فى سافوى أكثر مما أسلمته فى باريس !

ويمكن تصور مبلغ القلق الذى أحسته « مدام دى برنى » بإزاء هذه المؤامرات العابثة التى أصابت صديقها . فكتبت إليه تقول : « إن خوفاً مميتاً يزحف أحياناً على قلبى كلما سمعت بأحوالك .. فاصغ إلى صوت العقل يا صديقى العزيز المحبوب ! » .

وقد استمع لنصيحتها ، فإن كراهيته للمركيزة دى كاسترى كانت تنمو وتتزايد فى قلبه يوماً بعد يوم .. حتى ثاب إلى رشده آخر الأمر . وحين أعد للطبع قصته « لويس لامبير » سأل « مدام

دى برنى » – صديقته المخلصة ، والمنقذة – أن تكتب إليه ملاحظاتها ونقدها للقصة .. فكتبت إليه تقول ، معلقة على بعض عبارات القصة التى تنم عن شىء من الغرور والتفاخر : « يا عزيزى ، دع الجماهير تراك من كل ناحية ، بفضل العلو الذى بلغته .. ولكن لا يليق بك أن تدعوهم صائحاً كى يعجبوا بك ! » .. وقد قدر لها هو نقدها الصريح الجرىء ، فجعل إهداء الكتاب حين نشره : « الآن وعلى الدوام أهديه للمحبوبة .. » .

لكن « مدام دى برنى » بلغت أخيراً السادسة والخمسين من عمرها ، سنة ١٨٣٢ ، فكان لا بد أن تفلت من « بلزاك » بعض حركات توحى بسأمه إياها رغم تفانيه فى إظهار رقته نحوها .. وهو يقول فى هذا : « منذ صارت لى أفكار ومشاعر ، كرست نفسى للحب وحده .. فكانت أول امرأة صادفتها بطلة ذات قلب ملائكى وروح حصيفة فطنة .. لكنها – ويا ويلتى من هذا الاستدراك القاتل الذى أضافته الطبيعة الشيطانية ! – كانت تكبرنى باثنين وعشرين عاماً ، بحيث إذا تغاضيت عن مغزى ذلك من ناحية المبدأ ، وضعت الطبيعة فى وجهى عوائق مادية لا يمكن تخطيها .. وهكذا فقدت النصف من كل شىء ! » .

يوصى عشيقته الشابة بعشيقته العجوز !

● والخليلة التى جاوزت الخمسين لا يمكن أن تكون متسامحة ، فهى تفتح ذراعيها حين يعود إليها حبيبها التعس باكياً يشكو إليها

المذلة التى لحقته من امرأة أخرى ! .. وهكذا فعلت « مدام دى برنى » حين اعترف لها « بلزاك » بأهوال غرامه المفقود للمركيزة « دى كاسترى » ! وأثناء مغامراته التالية مع « مدام هانسكا » – الحسناء البولندية الجميلة التى أطلق عليها لقب « الأجنبية » ، والتى قدر لها أن تصير فيما بعد « مدام بلزاك » ! – استمع إليه يقول للأخيرة فى أحد خطاباته : « غداً . إذا أردت ، أحطم قلمى .. غداً لا تعود امرأة تسمع صوتى .. لكننى أسألك الرحمة لمدام دى برنى ، التى هى بمثابة أمى .. فلسوف تبلغ الثامنة والخمسين قريباً .. فلا تغارى منها . أنت التى ترتعين فى شبابك ! » .

ولأنه أحب دائماً نساء أكبر منه سناً ، أطال بلزاك فى قصصه سن الحب ، فخلق لأول مرة فى الأدب القصصى البطلة التى تحب بعد أن تجاوز الثلاثين ! .. لكنه رغم هذا لم يجرؤ على أن يصور فى أدبه قصته الشخصية الواقعية إلى نهايتها ، التى بلغتها بموت « مدام دى برنى » ، بعد أن أصيبت عام ١٨٣٤ بمرضها الأخير .. وهو يصف هذا المرض فيما بعد بقوله : « إنها تسمو بصداقتها إلى حد إخفاء آلامها عنى .. فهى تريد أن تشفى من أجلى .. يا إلهى ، لكم تغيرت فى الشهرين الأخيرين .. لقد أصابنى الرعب حين رأيتها ! »

وحين ماتت كتب : « استأنفت عملى هذا الصباح ، إطاعة لتوصية لورا وكلماتها الأخيرة التى كتبتها لى ، والتى قالت فيها :

« الآن أستطيع أن أموت مطمئنة ، فإنى واثقة أنك ستضع فوق جبينك التاج الذى طالما حلمت بأن أراه فوقه . إن قصتك « زنبقة الوادى » عمل أدبى عظيم ، دون ملق أو رياء ... إلخ » .

زنبقة الوادى

● وقد كان الدافع لبلزاك على كتابة « زنبقة الوادى » هو مرض « مدام دى برنى » الأخير .. ذلك السيف المصلت الذى أوحى إليه بالرغبة فى أن يشيد لتخليد صديقته صرحاً أدبياً يكون جديراً بها ، وتراه قبل موتها !

وبطل القصة « فيلكس دى فاندنيس » ينتمى إلى إحدى أسر النبلاء فى (تورين) ، قضى طفولة قاسية – مثل بلزاك – ولا يعرف شيئاً عن النساء : « إذا أردت أن تكون صورة عن صباى فتخيل نفسك محمولا على أجنحة الماضى إلى تلك السن العذبة ، حين كانت شفتاك عذراوين لا تعرفان الكذب .. وعيناك صريحتين تنظران إلى الدنيا بلا خوف ، وإن أثقل أجفانهما الخجل الذى يصارع الشهوات .. وعقلك ساذجاً لا يعرف بعد نفاق المجتمع .. وأخيراً ، حين كان جبن قلبك يساوى فى عنفه وقوته كرم إحساسك البكر .. » .

وذات يوم .. فى مقاطعة « تورين » ، فى سن العشرين ، يحضر الفتى حفلته الساهرة الأولى ، فيجد نفسه جالساً إلى جوار امرأة

مجهولة ، يفتنه جمالها إلى حد أنه – دون أن يشعر بما هو فاعل – يلثم كتفها العارية !.. فتطلق المرأة صيحة حادة وتستدير نحوه مستاءة ، قائلة فى لهجة تأنيب : « مسيو ..! » ، ثم تأخذ سمتها إلى الخارج فى خطوات كخطوات الملكات !

من هى ؟.. لم يجرؤ فيلكس على السؤال ، وإن راح يبحث عنها فى كل ركن من (تورين) .. وذات يوم يهتدى إلى واد ساحر رائع يجرى فى بطنه نهر كالثعبان.. فيقول لنفسه : إذا كانت هذه المرأة تعيش فى مكان ما على الأرض .. فهذا هو المكان !

ولم يكن مخطئاً .. فهناك كانت تعيش «مدام دى مورسوف» !.. ويقدمه إليها أحد جيرانها .. فإذا هى ذات زوج مسن كريه غيور ، وطفلين مريضين .. لكنها برغم ذلك لم تفكر يوماً فى أنها تستطيع أن تفعل شيئاً فى حياتها غير أن تكرس نفسها لأسرتها.. لكنها تفعل ذلك وهى تتألم . ويقدر فيلكس – الذى جرب العذاب الروحى – مدى آلامها .. وحين يزور البيت لا ترتاب المرأة فى مقاصده ، بحكم طهر نفسيتها .. أما زوجها الكونت دى مورسوف فقد استماله الفتى إليه بمجاراته فى لعب «الطاولة» وتلقى دروس الزراعة وفلاحة البساتين على يديه !

كل شىء .. إلا الحب !

● ولكن ، فى اللحظة التى يطرق فيها فيلكس حديث الحب ، توقفه « مدام دى مورسوف » عند حده قائلة : « هذا هو الشىء

الوحيد الذى يجب ألا تفعله .. فإذا لم تقدر الأمر فسوف أضطر إلى أن أطلب منك عدم الحضور مرة أخرى ! » .

ويقبل الشرط ، قانعاً بأن يلمس ثوبها بين حين وآخر ، ويقبل يدها : « وحين تفشل الكلمات ، يحدث الصمت أثره فى نفسينا ، اللتين ذابت إحداهما فى الأخرى ، بغير قبلة فى الفم ! فنظل نحلق فى سماء حلم واحد ، ثم نسقط فى بئر ليس لها قرار . وحين نعود فنطفو فوق السطح ، فارغى اليدين ، يسأل أحدنا الآخر بنظراته : ترى هل يقدر لنا أن نحظى بيوم نستطيع أن نسميه « يومنا » ؟

ثم يدخل « فيلكس » غمار الحياة السياسية ، تقوده حكمة « مدام دى مورسوف » – كما فعلت ببلزاك « مدام دى برنى » – ويحصل على منصب فى حكومة « لويس الثامن عشر » بباريس ! وهناك يلتقى بامرأة إنجليزية حسناء ، « ليدى أرابل ردلى » ، التى تحاول أن تستميله إليها ، لمجرد شعورها بأنه ملك لغيرها !.. وتزيد المقاومة من حدة عواطف الطرفين : « كانت تعرض على وهى تضحك أكثر العروض تواضعاً ، وهى تعدنى بالتكتم الشديد .. أو تطلب مجرد السماح لها بأن تحبنى .. وذات يوم قالت لى ، مستنجدة برغبات شبابى المكبوتة : « سوف أظل دائماً صديقتك .. وخليلتك حينما تريد ! » .. وأخيراً رسمت خطة محكمة للظفر بى ، فاستمالت خادمى كى يسهل دخولها على فى البيت ، فى الظرف

الذى تراه مناسباً لقهر مقاومتى .. وانتهزت فرصة ليلة رأيتها فيها فى إحدى الحفلات فى مظهر خلاب وجمال باهر .. فلم أكد أعود إلى البيت حتى وجدتها تنتظرنى ، فى أجمل ثياب الإغراء ! » .

ومنذ تلك اللحظة يجد « فيلكس » نفسه تمزقها الحيرة بين « مدام دى مورسوف » و « ليدى ردلى » — كما وجد « بلزاك » نفسه حائراً بين « مدام دى برنى » وعشيقة أخرى تصغرها سناً — فيحز تذبذبه فى نفس « مدام دى مورسوف » ويقتلها الأسى .. وحين تقترب من حافة الأبدية ، تجد من نفسها القوة والجرأة على أن تصارحه بحبها : « وداعاً يا طفلى الغالى .. من روح سكبت أنت فيها من الأفراح والمباهج ما أنوء بحمله ، وما يغفر لك الكارثة التى انتهى أمرى إليها .. أنا موقنة من أنك تحبنى ، لهذا أقترب من راحتى الأبدية وأنا أرتجف أسفاً وندماً .. » .

زنابق ملطخة بالوحل !

● تلك هى القصة التى سخر منها البعض ، بزعم أن لغة الحب فيها نبيلة أكثر من الطبيعى !.. لكن سخريتهم فى الواقع ظالمة ، فبنفس اللغة كانت تعامل « مدام دى برنى » — الحقيقية — عاشقها « بلزاك » — رغم تدلهها فى حبه .. أما « ليدى ردلى » ، فبالرغم من أنه لم يكن لها وجود فى حياة « بلزاك » ، فإنها قد أضفت على القصة أنفاساً من الحياة ، وأضافت إليها فصولها الرائعة .. التى



ويقبل الشرط ، قانعًا بأن يلمس ثوبها بين حين وآخر ويقبل يدها ..

تصور شعور الرجل وهو يشهد موت المرأة الأولى التى أحبها فى حياته ، دون أن يخلو قلبه من إحساس بالإثم ، بأنه المسئول إلى حد ما عن موتها الذى سببته الغيرة والكمد ..!

هذه هى « زنبقة الوادى » والمرأة الموحية بها .. أما الزنابق الأخرى فى وادى حياة « بلزاك » فقد كانت ملطخة بالوحل ، وخاصة « مدام دى كاسترى » التى أوحت له طبيعتها العابثة بقصته الأخرى الرائعة « الدوقة دى لانجيه » .. وليس هذا مجال الحديث عنها .

وفى الفصل القادم يطالعنا « أندريه موروا » بالوجه السادس من وجوه الحب السبعة !

...



الوجه السادس ..

● تدرج بنا الكاتب المحلل «أندريه موروا» وهو يستعرض أطوار الحب وألوانه ، فى هذه الفصول الشائقة ، من حب « مدام دى كليف » المنطوى على « الفروسية » والشهامة.. إلى حب جوليا – (هيلويز الجـديدة) – الرومانتيكى الطاهر .. إلى الحب الفاجر كما تصوره قصة « العلاقات الخطرة » .. إلى الحب « ذى الوجهين » ، الذى يمتزج فيه الطهر والفجور ، كما أبدع فى وصفه « ستندال » فى قصته « الأحمر والأسـود » .. وأخيراً رأينا الوجه الخامس من وجوه الحب فى قصة « بلزاك » الخالدة « زنبقة الوادى » .

واليوم يقدم لنا « موروا » سادس ألوان الحب ، وهو الحب الذى يوحى به « الضجر » .. والرغبة فى الفرار من الواقع !

١ – «فلوبير» .. الانسان

● كان أبوه جراحاً شهيراً فى مدينة (روان) ، فنشأ الابن بين جدران مستشفى أبيه ، وكان أول ما تفتحت عليه عينـاه فى دنياه ، العراك مع الموت !.. أو على حد وصفه : « كان مدرج المستشفى يشرف على حديقتنا ، وكم من مرة تسلقنا – أخواتى وأنا – تكعيبة الكروم ، كى نتأمل الجثث المددة تحتنا ، والشمس تحرقها بنارها ، والذباب ينهشها فى غير رحمة .. نفس الذباب الذى يحوم حولنا نحن ويطن فوق هام الأزهار ! » .

ويؤثر المنظر فى عقل « فلوبير » الباطن .. حتى يكبر ويغدو رجلا ، فيكتب إلى خليلته « لويز كوليه » يوماً رسالة يقول فيها : « إن منظر المرأة العارية يجعلنى أتخيل هيكلها العظمى ! » .

ويشغف فلوبير منذ صباه بالتعمق إلى باطن « النفوس » البشرية أيضاً – لا الأجسام وحدها – وإلى تأمل «الهيكل العظمى» للأفكار الشريرة التى تختبئ فى أعماق أنقى الناس سيرة فى الظاهر !.. فإذا الخطاب الأول الذى يكتبه الصبى وهو فى سن التاسعة إلى أحـد أصدقائه يتضمن هـذه العبارات : « يا صديقى ، إنك محق فى ملاحظتك بخف الاحتفال برأس السنة .. إن أكثر تصرفات الناس تبدو لى سخيفة غبية ! » .

.. وحياة «فلوبير» هى ثورة عنيفة طويلة الأمد ضد غباء بنى البشر !.. فقـد شب ساخطاً حانقاً على أولئك الرجال « الذين تملأ

حياتهم عاطفتان : جمع المال ، والحياة من أجل ذواتهم فقط ! » .

.. وأولع منذ يفاعته بقراءة «هوجو» و «شكسبير» و «بيرون» و « روسو » .. لكن « هوجو » كان أحبهم إليه ، وحين قدر له يوماً أن يزوره فى بيته كتب يقول : «لقد استمتعت برؤيته عن قرب فحدقت فيه مشدوهاً ، كما أحدق فى إناء مملوء بملايين الجواهر الكريمة ، متأملا كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذى جلس بجوارى على مقعد صغير ، مدققاً النظر فى يده اليمنى التى كتبت كل تلك الروائع الجميلة ، قائلا لنفسى : « هذا هو الرجل الذى جعل قلبى ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت ، والذى أحببته أكثر من جميع من لم أعرف ! » .

والكاتب الثانى الذى كان له تأثير أدبى كبير على « فلوبير » هو « جيته » ، فقد قرأ قصته « فاوست » فى شارع (كورلارين) الجميل بمدينة روان ، الذى تحف به الأشجار العالية من جانب ، ويحف به من الجانب الآخر نهر السين .. وفى مواجهته على الضفة الأخرى تدق أجراس الكنائس التى يختلط رنينها فى الوعى بشعر « جيته » الرائع .. فكان رأسه يدور ويعود إلى بيته كالمأخوذ .. !

العاشق الخجول

● وقد كانت أول امرأة فى حياة « فلوبير » فتاة إنجليزية من صديقات أخواته ، كان يرتبك ويعتريه الاضطراب فى حضرتها !.. وحين بلغ الخامسة عشرة — وكان فى مدينة (تروفيل) — التقى

بزوجة أحد كبار رجال الأعمال ، وتدعى « مارى شليزنجر » ، فكانت ذكرى حبه إياها هى التى أوحت له بشخصية « مدام ارنو » بطلة قصته « التربية العاطفية » . ويظهر أنها كانت جميلة ، تكبره بثلاث عشرة سنة . ولكن حبه إياها كان حباً « أفلاطونياً » ، عذرياً — فقد كان يغلب على طبيعته الخجل ، الذى ضاعف من حدته مرض عصبى لم يلبث أن أصابه فمنعه طيلة شطر كبير من حياته من أن يختلط بالناس . واضطره إلى الاعتزال فى بيت صغير بضاحية « كرواسيه » .

لكن حياته فيما بعد لم تخل من خليلة . واحدة على الأقل ، هى « لويز كوليه » .. ويالها من خليلة !.. كانت لويز امرأة رائعة ، كرست جسدها الوردى وشعرها الأشقر وعينيها الجميلتين للترفيه عن الأدباء ، فتنقلت بين أحضان « فكتور هوجو » ، و « ألفريد دى موسيه » . و « ألفريد دى فينى » ،.. وفى سنة ١٨٤٦ التقت بفلوبير ، الذى كان فى الخامسة والعشرين ، فلم يمض شهران حتى صارت خليلته !

ويبدو أنه أحبها حباً مفرطاً ، يفضحه خطابه الأول إليها : « منذ اثنتى عشرة ساعة كنا ما نزال معاً .. ومع ذلك ، فلكم يبدو ذلك الآن ، ماضياً سحيقاً !.. الليل من حولى دافئ ناعم ، وإنى لأسمع تحت نافذتى حفيف أشجار الخزامى يعبث بها الهواء ، وأرى القمر منعكساً على صفحة النهر .. لكنى وحيد !.. لقد وضعت

خطابيك اللذين أرسلتهما إلى فى حافظة أوراقى المطرزة ، ولسوف أعيد قراءتهما حين أفرغ من كتابة هذا الخطاب . إنك المرأة الوحيدة التى أحببتها ، باستثناء امرأة أحببتها من سن الرابعة عشرة إلى سن العشرين ، دون أن أفاتحها أو ألمسها !.. لكنك الوحيدة التى أحيت فى قلبى الأمل فى أن أحظى بإعجابها .. بل لعلك الوحيدة التى حظيت بإعجابها فعلا .. فشكراً ثم شكراً ! » .

وقد سخر « فلوبير » فيما بعد من هذه العبارات التى كتبها ، فإنه سرعان ما تمالك نفسه فزهد فيها .. وبدأت صلتهما تفسد تدريجاً .. حتى كتب لها ذات يوم يقول : « يبدو أنك لا تفهميننى على حقيقتى ، فأنت أحياناً ترفعيننى إلى مرتبة أسمى منى ، وأحياناً أخرى تهبطين بى إلى درك أدنى مما أستحق .. وهذا هو داء النساء منذ القدم : فهن لا يعرفن الاعتدال ، ولا يردن أن يفهمن المخلوقات المعقدة ، التى هى الغالبية العظمى بين البشر !.. ولقد تبينت منذ زمن أن من يريد أن يعيش حياة هادئة لابد أن يعيش وحيداً ، ويحكم إغلاق نوافذه لئلا يتسرب إليه هواء المجتمع !.. وهذا هو السبب فى أنى عشت سنوات عديدة أتجنب رفقة النساء ! » .

ولقد كان « فلوبير » فى حبه ، كما فى صداقته ، قاسياً ، سريع الغضب ، فريسة للانفعالات والتقلبات العنيفة .. أو كما وصفته « لويز » – وبحق – بعد انفصالها : « أن شخصيته الوحشية كانت دائمة السخط والحنق فى أوقات وحدته ! ».. لكنها رغم ذلك اعترفت

بأن صلابته وشدته وكبرياءه قد منحته سيطرة عليها لا تقاوم !

على أن لويز قد أمدت فلوبير ولا شك ببعض العناصر التى استخلصها فيما بعد فى كتابة قصته العظمى : « مدام بوفارى » ، التى كان شروعه فى كتابتها – فى سنة ١٨٥١ ، وهو فى سن الثلاثين – خاتمة لحياته كعاشق .. فمنذ ذلك الحين حتى نهاية عمره تنحصر قصة حياته فى قصة عمله دون سواه !

وقد اقتبس فلوبير حوادث القصة وشخصياتها من قصة واقعية بطلها طبيب من تلاميذ فلوبير الأب يدعى « ديلامار » ، كان يعمل طبيباً لقرية (رى) حين ماتت زوجته ، فتزوج من فتاة تدعى « ديفلين كوتوريبه » نشأت فى مدرسة (روان) الداخلية للبنات ... إلخ .

ولكن .. فلننتقل من القصة الواقعية إلى القصة الروائية ، قبل أن يفسد السياق حوادثها ومفاجآتها ..!

٢ – مدام بوفارى

● « شارل بوفارى » طبيب من أطباء الريف ، أرمل .. يستدعى ذات يوم لعيادة فلاح نورمندى مسن يدعى « روال » .. وهناك يرى إلى جوار فراش المريض ابنته « إيما » ، فيدهشه بياض أظافرها « المشرقة الرقيقة ، الأكثر لمعاناً من العاج .. وإن كان جمالها الحقيقى يكمن فى عينيها السمراوين اللتين تبدوان ، من فرط غزارة أهدابها الفاحمة ، سوداوين .. ونظرتها الصريحة الجريئة ..

ورقبتها القائمة فوق ياقة ثوبها البيضاء .. وشعرها الأسود الناعم ، الذى يشقه من الوسط جدول رفيع أبيض ... إلخ » .

ويعرب الطبيب على رغبته فى الزواج منها ، ويوافق والدها .. وكذلك تفعل هى ، فإنها قد ضاقت ذرعاً بالريف . ومن يدرى ؟ لعل هذا الطبيب الريفى يكون فتى أحلامها !؟.. وفى ليلة الزفاف تتمنى « إيما » لو تزف فى منتصف الليل على ضوء المشاعل الباهرة ، لكن والدها الشيخ لا يستطيع أن يقدر هذه النزوة التى تشف عن حس مرهف !

على أن « شارل بوفارى » يخيب رجاء عروسه ذات الخيال ، والحس المرهف : « لقد حسبت قبل الزواج أنها تحبه . ولكن حين لم تواتها السعادة التى تعقب الحب عادة ، بدأت تستنتج أنها لا بد كانت مخدوعة فى عواطفها !.. وحاولت « إيما » أن تتصور ماذا يقصد الناس بالضبط بكلمات : « الهناءة » و « النشوة » ، و « العواطف الملتهبة » ، التى تبدو جميلة فى الكتب !

نعم ، فى الكتب !.. فإن أبرز صفات « مدام بوفارى » أنها قد كونت عقائدها عن الحياة من الكتب ! « كانت قد قرأت (بول وفرجينى) ، وحلمت بالعش الجميل الصغير ، والخادم الزنجى « دومنجو » ، والكلب الأمين ، وقبل كل شىء بالصداقة العذبة مع الأخ الغالى الذى يتسلق الأشجار كى يقطف لك منها

الثمار الحمراء ، أو يجرى على الرمال حافى القدمين كى يجلب لك عش عصفور .. » .

فأين من هذا ريف « نورماندى » حيث تعيش ، وحيث لا شىء يذكى الوجدان ؟.. « كانت لا ترى غير قطعان الماشية ، والمحراث ، وحظائر الأبقار التى تدر اللبن ، فملت هذه المظاهر الهادئة للحياة .. وتاقت إلى مظاهرها الصاخبة . أحبت البحر من أجل عواصفه وحدها ، والحقول الخضراء حين تبدو فقط بين الأطلال .. ونبذت كل ما لا يحقق لقلبها رغباته المباشرة .. كانت تبحث عن الانفعالات ، لا مناظر الطبيعة !.. ولم تكن تحرك قلبها غير حياة الهوى كما تصفها القصص والروايات ، حيث العشاق والعشيقات ، وأنين القلوب الولهانة ، ووعود الغرام ، والتأوهات ، والدموع والقبلات .. والزوارق التى تمر تحت ضوء القمر ، والبلابل التى تغرد فوق الأفنان فى الغابات .. والرجال الشجعان كالأسود ، الرقيقون كالحملان ... إلخ .. وكان جو المؤسسة التى درست فيها قد ساهم فى إذكاء وجدانها .. لم يكن فى الصور التى تزين غرفة الموسيقى بها ، والمقطوعات التى كانت « إيما » تغنيها ، غير « الملائكة الصغار ذوى الأجنحة الذهبية ، والعذارى الساحرات ، والملاحين الذين يغنون فى زوارق الجندول وهى تشق أمواج البحيرات ... إلخ » .

وكانت شغوفة بتأمل الصور واللوحات الجميلة التى تقع عليها

عيناها : فهذه شرفة قصر عتيق يقف فيها شاب ذو معطف قصير ، وبين ذراعيه فتاة ترتدى ثوباً أبيض .. وهؤلاء نسوة إنجليزيات بشعورهن المجعدة ، ينظرن إليك بعيونهن البراقة من تحت قبعاتهن .. وهؤلاء سلاطين من الشرق ، مسترخين تحت مظلات بساتينهم ، يدخنون غلايينهم الطويلة .. وفى أحضانهم محظياتهم !.. وهذه أشجار نخيل ، وتلك معاطف فراء ، ونمور وأسود ، ومنارة فى الأفق ، وأطلال رومانية ، وإبل تعبر الصحراء ، وغابات عذراء ، وغدران وجداول ترقص على صدرها أشعة الشمس ، ويسبح فيها البط .... إلخ .

تلك كانت عوامل تكوين نفسية « إيما روال » قبل الزواج .. فلما التقت بشارل – الرجل الوحيد الذى كانت تستطيع أن تراه كثيراً وبلا حرج فى بيت أبيها ، بحكم أنه طبيبه – أيقظ وجود هذا الغريب فضولها ، وهيأ لها أنها قد عثرت آخر الأمر على العالم العاطفى السحرى الذى طالما رأته فى الصور ، وقرأت عنه فى الكتب وحلمت به وهى تنصت للموسيقى !.. فلما تم الزواج لم تستطع إقناع نفسها بأن حياتها الهادئة مع شارل هى الجنة التى طالما حلمت بها !

وعندئذ ، بدلا من أن تعيش فى الواقع ، استمرت تحلم .. تحلم بالرحلات .. بالفرار فى عربة مقفلة تغطى نوافذها الستائر الحريرية الزرقاء !.. وتحلم بصوت أجراس الأغنام ، وشلالات

الجبال ، والخلجان التى يشم المرء على شواطئها أريج أشجار الليمون !.. ولو استطاع شارل أن يتيح لها بعض الرحلات من وقت إلى آخر ، أو حتى يصفها لها ، لربما كانت قنعت بذلك ، ووجدت فيه سعادتها المنشودة .. لكن أحاديث شارل كانت تافهة مملة ، وهواياته معدومة : فهو لا يمارس الصيد ، ولا السباحة ، ولا المبارزة بالسيف !.. بينما الرجل فى رأيها يجب أن يشغل نفسه بأوجه نشاط متنوعة ، ويكون قدوة للمرأة فى تجربة الانفعالات المختلفة ..

وهكذا خاب ظن « إيما بوفارى » فى زوجها .. فإن الحب الذى كان حقيقاً بإرضاء نزعتها هو الحب الدخيل الغريب الذى قرأت عنه فى الكتب .. أو هو الحب الذى حلم به فلوبير نفسه – مؤلف القصة – فى سنوات مراهقته ، والذى لم يطفىء جذوته غير رحيله إلى الشرق وتقلبه بين أحضان غانيات مصر بوجه خاص ! وهكذا تسائل « إيما » نفسها : « لماذا بحق السماء تزوجت ؟.. وهل يوجد سبيل إلى الالتقاء برجل آخر ؟ لا يمكن أن يكون الرجال جميعاً مثل هذا الرجل .. ولكن ، ترى هل يوجد فى الدنيا حب ؟.. وما وصفه .. وكيف يكون ؟ »

وبغير أن تشعر ، تتلفت « إيما » حولها فتعثر أول الأمر على موظف خجول مراهق يدعى « ليون » ، مرهف الحس مثلها .. فإذا آراء كل منهما وأحاديثه أشبه بصدى لآراء الآخر وأحاديثه !..

فهى حين تسائله : « هل تذهب للنزهة فى المناطق المجاورة ؟ يجيبها : بأنه يذهب كى يرقب غروب الشمس .. فتردف معلقة :

ـ أوه ، لا شىء أجمل من ساعة الغروب .. وخاصة على شاطئ البحر .

ـ لكم أحب البحر !

ـ ألا تشعر بأن الفكر يطير طليقاً من كل قيد فوق تلك المساحة الشاسعة من الماء ، التى يسمو التأمل فيها بالروح ويعطيك فكرة عن اللانهاية ، وعن الأمور المثالية ؟..

ـ بالضبط .. وكذلك الحال فوق الجبال ..

وهكذا يحسان بتجاوب روحى بينهما ، ويغلبهما العجب من وجود هذه اللذة التى كانا يجهلانها .. لكنهما لا يفكران فى التحدث عن هذا الشعور الطارئ أو فى البحث عن سببه .. وإنما هما يتركان هذا « السم » العذب يسرى فى نفسيهما ، دون أن يفكرا لحظة فيما وراء الأفق الممتد أمامهما !

وتنتهى « إيما » إلى أن « ليون » هو العشيق المنشود الذى تلجأ إليه إذا لزم الأمر !.. لكنه يغادر البلدة ، إلى غير رجعة ، دون أن يجرؤ على تحقيق حلمها !

• • •

● وتعقد « إيما » أملها الثانى بعد ذلك على « رودلف » ، وهو رجل ذو حيوية وطباع « وحشية » ، تمرس بالنساء طويلا حتى صار قديراً على أن يحكم عليهن من النظرة الأولى حكم خبير !.. وبالفعل تروق « مدام بوفارى » فى عينيه ، فيعتزم الظفر بها .. وينتهز فرصة المعرض الزراعى الذى يعقد فى البلدة كى ينفرد بها على مرأى ومسمع من الناس جميعاً !.. وفيما ينشغل الرسميون بتوزيع الشهادات والجوائز على الفائزين ، يهمس « رودلف » فى أذن « إيما » بالعبارات القديمة المألوفة التى طالما مكنت الرجال من غزو قلوب النساء .. مثلما تمكن خطط حربية معينة من كسب المعركة دائماً !

وتترك « مدام بوفارى » نفسها تستجيب لغزله بسهولة ، كما هو منتظر .. وبينما يسلك هو معها ـ فى بساطة ـ مسلك الواقعى ، تحاول هى أن تضفى على المغامرة جواً روائياً .. فحين يلتقيان فى حديقتها ، بناء على موعد مضروب ، ويسمع هو حفيفاً قريباً .. تسأله هى :

ـ هل أحضرت معك غدارتيك ؟

ـ لم ؟

ـ لكى تدافع عن نفسك !

وتظل تكرر لنفسها فى غبطة : « لقد صار لى عشيق .. صار لى عشيق ! » .. « وهكذا تتذوق أخيراً مباهج الحب ـ تلك الحمى من السعادة التى كان قد أدركها اليأس من تذوقها ـ فأحست أنها

تدخل عالماً رائعاً ليس فيه غير العواطف الحارة ، والنشـوة ، والهذيان !.. وترامى أمام خيالها أفق لازوردى لانهائى .. والتمعت فى تصوراتها قمم جبال من الانفعالات الحادة .. ولم تعد ترى الحياة العادية الباردة إلا على بعد سحيق ، فى الظلال المعتمة المنزوية بين تلك القمم العالية .. ثم استدعت إلى ذهنها بطلات الكتب ، والقصص التى قرأتها ، وبدأت أغانى وأهازيج أولئك الزانيات تتردد فى أذنيها الحالمتين .. » .

وكما يحدث عادة ، لم تكد « إيما » تقع فى هوى صاحبنا ، حتى حلمت بالسفر والرحلات .. رأت نفسها محمولة مع « رودلف » فى عربة تعدو بها أربعة جياد ، نحو وطن جديد .. « يلمحان آناً من فوق قمة جبل مدينة رائعة بقبابها ومناظرها ، والسفن الراسية فى مينائها ، وغابات الليمون المتكاثفة خارج تخومها .. وكنائسها ذات الأبراج الرخامية البيضاء التى تبنى الطيور أعشاشها فوق أطرافها المدببة .. وحين يبلغانها تخرج إليهما بائعات الزهور فى ثيابهن الحمراء ، كى يبعن باقة منها للعاشقين . وذات ليلة يقف ركبهما عند قرية من قرى صيد السمك ، حيث الشباك منشورة على الصخور وبين الأكواخ كى تجف فى الهواء .. وهنـاك يقع اختيارهما على منزل صغير من طابق واحد ، تظلله شجرة نخيل فى قلب الخليج المشرف على البحر ، كى يقضيا فيه أياماً ، تتخللها



ثم استدعت إلى ذهنها بطلات الكتب ، والقصص التى قرأتها ..

نزهات للتجديف فى قوارب الجندول .. وخلوات بين أحضان الأراجيح الشبكية » ... إلخ .

وتحاول « إيما » جاهدة أن تجعل من « رودلف » البطل الذى أحبته بالخيال .. ويحاول هو من جهته أن يكون عند ظنها ، مستعيناً على إتقان الدور الذى تسنده إليه ببعض قراءاته القصصية ، على قلتها .. لكن الأمر الذى يعجز عنه حقاً هو تحمل عنف عاطفتها طويلا !.. ولعل « فلوبير » حين صور « رودلف » قد استلهم مسلكه هو الشخصى بإزاء خليلته « لويز كوليه » .. وخاصة حين تبكى « إيما » نائحة : « إنك أنت الذى أحبه .. أحبك إلى درجة أنى لا أستطيع الحياة بدونك ، أتفهم ؟.. وأنه لتمر بى أوقات أحس فيها شوقاً جارفاً إليك ، بحيث يكاد الحب يمزقنى .. فأسائل نفسى : « أين هو الآن ؟.. لعله مع نساء أخريات ، يتحدث إليهن .. ويبتسمن له !.. أواه ، إن الأمر ليس كذلك . أم لعله كذلك ؟ تكلم ! صارحنى . ألا تجذبك امرأة أخرى ؟ اعترف أن هناك من هن أجمل منى ، لكننى أفوقهن قدرة على الحب .. إنى خادمتك ومحظيتك .. وأنت مليكى ومعبودى .. إنك طيب ، وأنيق ، وذكى ، وقوى ! » .

فماذا يكون رد الفعل من جانب رودلف ؟

إنه قد سمع هذه العبارات من قبل ، وليست « إيما » غير

خليلة مثل سائر الخليلات !.. وأما جاذبية الشىء الجديد فتسقط تدريجاً فى وعيه كما يسقط الثوب عن الجسد ! تاركة الملل العاطفى المألوف عارياً لا يحجبه شىء !.. ذلك أن « رودلف » لا يستطيع أن يفهم أن وراء كلمات « إيما » التافهة وعباراتها المألوفة تكمن عاطفة صادقة ملتهبة . وحين تعرض عليه أن يحيل الحلم إلى حقيقة ويفر معها ، يكون ذهنه منشغلا بالتفكير فى الانفصال عنها !.. وهكذا يعتذر إليها متعللا بما يقتضيه الفرار من نفقات وانزعاج لا يقدم عليهما غير الأغبياء !.. وينفصلان !

• • •

● ويحدث الانفصال أخطر أزمة نفسية فى حياة « إيما بوفارى » .. فحتى هذه اللحظة كانت هى تأمل أن يكون للحب الشاعرى وجود ، بل كانت تؤمن به إيماناً وطيداً .. فلما انهار ، بدأت المرأة الحالمة التى فشلت فى غرامها ، والتى ماتزال تحتفظ بفزعها ورعبها من الواقع ، تحاول إغراق آلامها فى الملذات ، وفى إذكاء حدة حواسها ، وإشباعها — وهذا ما يصفه القسم الثانى من القصة بالتفصيل — ولكن بين القسمين فترة انتقال ، تمرض فيها « إيما » .. والمرض وسيلة نفسية رائعة للفرار من مآزق الواقع المرير !

وحين تبل « إيما » من مرضها ، تحاول إنقاذ نفسها بالعودة

إلى حب زوجها ، باذلة أقصى ما فى وسعها كى تروض قلبها على قبول هذا الحب ، مستعينة على ذلك بمحاولة أن تخلق منه رجلا عظيماً ، يستحق هذا الحب .. فلعلها لو أحست نحوه بشعور من التقدير ، تستطيع أن تحبه !.. وفعلا تحين لها الفرصة المنشودة حين يجرى زوجها جراحة خطيرة لغلام الفندق ، وهى جراحة لو نجحت لجعلت من الدكتور بوفارى جراحاً شهيراً !.. لكن الجراحة تفشل ، فتدمر حياة « بوفارى » ومستقبله ، وتدخل الاضطراب على عمله .. ومنذ تلك اللحظة تنزلق « إيما » ، وتهوى من حالق !

بمن تستطيع أن تتعلق وتتشبث ؟.. من من رجال القرية تستطيع أن تحب ؟.. الصيدلى « أوميه » ؟ لكنه رجل وقور ، وثرثار لا يحسن غير الكلام !.. أم القسيس « لورنيزيان » ؟ إنه متبذل دنىء ، لا يعرف الإخلاص ..

وهنا ، أثناء رحلة إلى (روان) ، تلتقى بالشاب الذى ترك القرية غير مجترئ أن يفاتحها بحبه : « ليون » !

وتصير خليلته !

ولكن رغم استسلامها لهذه المغامرة فى استهتار طائش ، لا يخالطه شىء من التحفظ ، فإنها — مرة أخرى — تصاب بخيبة أمل : « كانا قد اعتادا تدريجياً أن يتحدثا فى أمور لا تمت بصلة إلى حبهما .. وفى الخطابات التى صارت « إيما » تكتبها إليه ،

تحدثت عن الأزهار ، والشعر ، والقمر ، والنجوم .. وغيرها من الوسائل الخارجية الساذجة التى تستنجد بها العاطفة حين توشك أن تنطفئ .. كى تبقى على قيد الحياة !.. وكانت « إيما » لا تفتأ تمنى نفسها بالسعادة المطلقة فى الخلوة التالية .. ثم تضطر إلى الاعتراف لنفسها بأنها لم تحس جديداً !.. ولكن سرعان ما كانت هذه الخيبة تخلى السبيل أمام أمل جديد ، فتعود « إيما » إلى عشيقها أكثر انفعالا ، وأحد عاطفة ، منها فى أى لقاء سابق ! » .

وبين الحقيقة والحلم ، كان التفاوت يزداد كل يوم اتساعاً — رغم تجربة إيما لجميع ظروف اللقاء التى وصفها الشعراء ! — وكانت أكثر خلواتهما الغرامية تتم فى (روان) ، فى غرفة بأحد الفنادق تسدل عليها الستائر التركية الحمراء .. وهناك تعرفت « إيما » ذات مرة بالتاجر « لورو » ، الذى أوقعها فى قبضته عن طريق إقراضها مالا مقابل كمبيالات مدمرة !

وهكذا صارت الزوجة شبه غانية متلافة .. تغرق نفسها وحواسها فى طوفان من الملذات ، والعطور ، والزهور ، والطعام ، والخمور .. وتنفق ساعات أمام مرآتها تمشط شعرها الطويل المتهدل على كتفيها ، وهى تستشعر فى ذلك لذة عارمة .. وأمدها يأسها من العثور على العشيق المثالى ، بشغف مضاعف بأسباب الترف !.. ونمت فى أعماقها حاسة الولع بالكذب .. ثم صارت تستولى على أموال المرضى من زوجها بانتظام ، وتشترى حوائجها من التجار

بالنسيئة – التقسيط – وترهق ليون بالمطالب ، فهى لا تحبه من أجل نفسه ، بل إرضاء لنفسها هى ..

.. وتتراكم عليها الديون إلى درجة الدمار ! .. وتتزايد حاجتها إلى المال .. ويمطرها دائنوها بالفواتير و « الكمبيالات » .. فتدركها الحيرة وتستنفد كل حيلة .. وفى غمرة ارتباكها ، تفكر فى الالتجاء إلى عشيقها الأول « رودلف » !

لكنه يردها فى جفاء .. فتمضى يائسة إلى مراب شيخ ، يبدى استعداده لأن يقرضها ، إذا ..؟

لكن العاشقة الحالمة ليست «للبيع» ! .. وأثناء سيرها تمر على صيدلية «أومية» . فتدخل .. وتسرق جرعة من الزرنيخ .. وتشربها !

وتموت « إيما » ميتة رهيبة !

ترى هل قتلها الحب ؟

كلا .. بل قتلتها رغبتها فى أن تعيش دائماً .. فى حلم !

• • •



قناع الأوهام !

● وفيما يلي أقدم لك الوجه الأخير من وجوه الحب السبعة الذى تمثله قصص « مارسيل بروست » .. بعد أن قرأت معى على التوالى فى الفصول الستة الماضية قصص : « مدام دى كليف » لمدام دى لافاييت .. و « جوليا » لجان جاك روسو .. و « العلاقات الخطرة » للجنرال دى لاكلو .. و« الأحمر والأسود » لستندال .. و « زنبقة الوادى » لبلزاك .. و « مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير ..

الحب .. « مرض » !

● فى قصة « مدام بوفارى » رأينا كيف نحا « فلوبير » نحو المذهب الواقعى البحت ، ونأى بكتاباته عن المذهب الخيالى « الرومانتيكى » . مما أثار عليه ثائرة النساء ، اللوانى رفضن قبول المذهب الواقعى كحل دائم للمشكلات العاطفية .. فكانت تلك الثورة سبباً فى اتجاه خلفاء فلوبير من القصصيين إلى مزج الواقع بالحلم ، والحقيقة بالخيال ، كما فعل موباسان ، وبول بورجيه ، وأناتول فرانس .. الذين رسموا فى قصصهم صوراً عديدة للزنا بين أفراد الطبقة الراقية ، ولكن بعد أن قنعوه بالأسلوب اللبق والحصافة اللغوية !.. لكن أحداً منهم لم يبلغ مرتبة « ستندال » فى عمق التحليل وبراعة التصوير ، وإن كان موباسان قد فاق زميليه فى النزعة الإنسانية وإرهاف الحس ..

ثم ظهر – فى أواخر القرن التاسع عشر – الفيلسوف «برجسون» مبشراً بفلسفته الجديدة ، داعياً الفنانين إلى التعمق وراء الألفاظ ، وإلى اكتشاف العواطف الحية التى يخفيها قناع الأسلوب واللغة .. فاستجاب كثير من الرسامين لدعوته ، محاولين اختراق القشور الخارجية إلى الطبيعة الحية .. كما استجاب له من كتاب القصة قاص عبقرى .. هو « مارسيل بروست » !

وبروست يختلف عن سابقيه فى أنه لا يضفى على مخلوقاته هالة

من الكمال والجمال والذكاء تجعلهن جديرات بالحب ، من جانب أى رجل يقع بصره عليهن .. وإنما هو يوقع الرجال فى حب نساء محرومات من المميزات التى تجملهن فى عين من يراهن !.. فهو يصور فى قصصه الحب « غير » المنطقى ، أو الحب الذى لا تبرره ظروفه .. ذلك لأنه يعتبر الحب « مرضاً » طارئاً أليماً يصيب الإنسان .. وكما تستطيع جرثومة صغيرة غير منظورة أن تسبب لنا حمى مرتفعة ، كذلك تستطيع امرأة تافهة عديمة المزايا والمؤهلات أن تجعلنا تعساء !

وقد صور بروست أطوار « مرض الحب » ، وأعراضه ، وعلاجه ، بدقة وبراعة منقطعتى النظير .. كما سنرى فى قصتيه اللتين نعرضهما فيما يلى :

غرام « سوان »

● أما القصة الأولى « غرام سوان » فبطلها رجل مثقف مترف مرهف الإحساس يدعى « سوان » ، يقضى أكثر وقته مع الطبقات الأرستقراطية .. ويحظى بأجمل نسائها كخليلات .. لكنه يلتقى ذات يوم فى المسرح ، بمحض المصادفة ، بامرأة تدعى « أوديت دى كريسى » .. وحين يقدمها له أحد أصدقائه ، يجدها « سوان » ذات جمال من النوع الذى لا يثير فيه أية رغبة أو اهتمام ، بل إنها على العكس توحى إليه بشعور من النفور الجسمانى !.. ذلك أن لكل رجل « لون » من النساء يعجبه ويثير غرائزه ، وهذا اللون

تتكون أوصافه ومميزاته فى ذهن الرجل ومشاعره من مؤثرات غامضة مبكرة ، أثناء طفولته أو صباه .. وقد كانت « أوديت » على عكس ما يشتهى سوان ، وخاصة من حيث كونها سوقية متبذلة ، ينقصها التهذيب !

وبعد لقائهما بأيام ، تكتب أوديت إلى سوان طالبة منه أن يأذن لها بزيارته لرؤية مجموعة تحفه الفنية !

ويأذن لها .. فتزوره فى منزله . وفى كل مرة يراها يحس بالاكتئاب والأسف لأن هذا الجمال الرائع ليس من النوع الذى يروقه ! وفى كل مرة تخرج من بيته يبتسم لنفسه وهو يذكر قولها له إن الأيام سوف تمر بها بطيئة متثاقلة حتى يحين الموعد الذى يسمح لها بزيارته فيه مرة أخرى !.. ثم يذكر لهجة القلق واللهفة والخجل التى ترجوه بها « أن لا يجعل فترة انتظارها تطول » ، وهى ترمقه بنظرة توسل وتهيب .. تروقه !

وفى تلك المقابلات الأولى تبذل أوديت محاولات كبيرة كى تجذب سوان إليها ، وكى تقدمه إلى البيئة التى تعيش فيها والحلقة التى تتردد عليها ، وهى صالون « مدام فردوران » .. وأثناء ذلك يبدأ سوان - بغير أن يشعر - يبلور شخصية أوديت فى ذهنه ، ويضفى عليها من خياله سحراً لا تملكه .. بعد أن أثر فيه اهتمامها به ، ولهفتها عليه !.. وذات يوم يلحظ - وهو الفنان الشغوف بمعرفة الوجوه الحقيقية التى ينقل عنها أساطين الرسم لوحاتهم الرائعة -

مبلغ التشابه الصارخ بين وجه أوديت وبين صورة مشهورة للفنان العظيم بوتيتشيللى .. ومنذ تلك اللحظة يضفى هذا الشبه على أوديت جمالا يزيدها قيمة فى عينيه ! .. وقد رأينا فى نظرية « ستندال » عن التبلور الذى يولد الحب كيف تختلف الظروف التى تسبب هذا التبلور عند كل عاشق باختلاف هوايته المفضلة : « فالرجل الرياضى تجذبه براعة المرأة فى ركوب الخيل مثلا ، أو لعب الجولف أو التنس .. والموسيقى تجذبه براعتها فى الغناء .. والسياسى تعجبه المرأة التى تشاركه ميوله السياسية ، وهكذا ! .. ولما كان سوان من عشاق فن الرسم فقد جذبه نحو أوديت إعجاب الرسام الشهير بشبيهتها القديمة التى أوحت له بلوحته الفنية .. ومن ثم فهو يوبخ نفسه على إساءته تقدير جمال مخلوقة سحرت شبيهتها « بوتيتشيللى » العظيم .. ويقول لنفسه إن هذه اللهفة التى تبديها أوديت نحوه ليست بالأمر التافه ، بل إنها لفضل كبير منها يعز مثيله ، فهى ترضى فيه أسمى نزعاته : حبه للفن ..

• • •

● « وأمد هذا الاكتشاف « سوان » بشعور جديد : مكنه من أن يرفع أوديت فى عالمه الخيالى إلى مرتبة لم تكن قد بلغتها قط من قبل ، وهى مرتبة أراقت عليها فيضاً من النبل الذى كانت محرومة منه بحكم بيئتها السوقية .. وبعد أن كانت هيئة هذه المرأة من حيث الوجه ، والجسم ، وشتى مقاييس الجمال ، تضعف من

إعجابه بها .. تبددت شكوكه فى جمالها وتوطد إعجابه بها ، ثم حبه لها ، بمجرد أن علم باختيار الرسام الشهير لمثيلتها كنموذج للجمال المعصوم ! .. وبعد أن كان يعتبر قبلاتها ، بل والظفر بجسدها المباح غاية وضيعة لا تستحق الاشتياق .. صار ذلك هدفاً ممتعاً « فوق العادة » ، لأنه بمثابة تتويج لتعبده لتحفة فنية رائعة من تحف المتاحف ! » ... إلخ .

أما وقد تم « التبلور » على هذا النحو بفضل « الجاذبية الفنية » ، فإن سوان يذهب لزيارة مدام دى كريسى كل ليلة .. ولما كان قد وقع فى هواها وتدله حتى أذنيه ، فإنه لا يرى جمالا أو سحراً إلا فى الأشياء التى تريق هى عليها من جمالها وسحرها ! .. لكن حبه — وهو الأنانى المنهمك فى شهواته — لا يقوى وتتعمق جذوره فى قلبه إلا بفعل الشك ! .. فهو لا يرى أوديت إلا ليلا .. ولا يعلم شيئاً عما تنفق فيه النهار كله .. وإذن فما زال شطر كبير من حياتها مجهولا لديه تماماً !

وهكذا ، وكى يتجنب الشكوك ، يحاول أن يزداد التصاقاً بأوديت .. ولما كان السبيل الوحيد إلى رؤيتها فى كل وقت هو الاندماج فى نفس الجماعة التى تختلط هى بها ، فإنه ينسى حصافته فى اختيار رفاقه ويصبح رائداً متواضعاً مزمناً من رواد صالون « مدام فردوران » السوقى .. الذى كان يأنف من سماع اسمه من قبل ! .. وكما يحدث دائماً حين يتورط الرجال فى الحب ، تتبدل

مشاعر سوان فيجد متعة فى الاختلاط بتلك الجماعة ، لأنه حين يكون بينهم يستطيع أن يستمتع برؤية أوديت ، ويتملى بوجودها ، وحديثها .. وهكذا يصاب ذكاؤه وذوقه المرهف بشىء يشبه الشلل ، فيتوقفان عن العمل !.. وإذا هو يقول لنفسه : « يا لها من جماعة جذابة ظريفة .. حقاً إن هذه هى الطريقة الوحيدة التى بها يستمتع الإنسان بحياته !.. بل ما أعظم تفوق هؤلاء الناس على المجتمع فى ذكائهم ، وفى فنهم .. وما أشد إخلاص مدام فردوران فى حبها للرسم والموسيقى ، رغم مبالغاتها الصغيرة المضحكة !.. وأى شغف بالأعمال الفنية يلمسه المرء هناك ، وأية رغبة فى إدخال أسباب المتعة والسرور على نفوس الفنانين !.. وفوق كل هذا فإنك تحس هناك أنك حر تماماً ، تستطيع أن تفعل ما تشاء بغير حرج ، بغير قيد ! » .

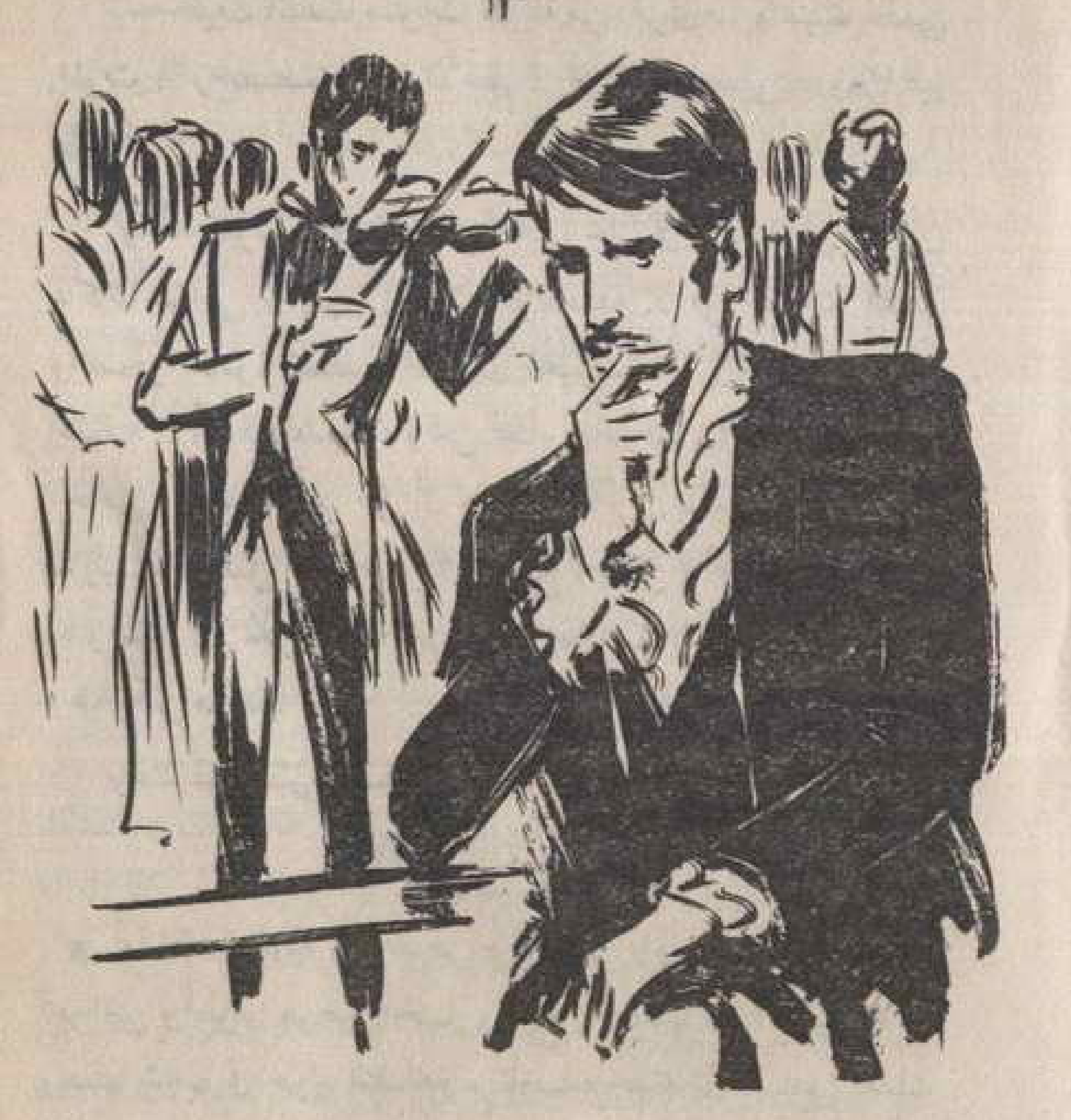
وما هذه « الفضائل » التى يخيل للعاشق الولهان أنه يكتشفها فى صالون مدام فردوران ، سوى انعكاس للمتعة التى يشعره بها حبه لأوديت !.. وهنا يفتن « بروست » فى تصوير غباء وحماقات رواد صالون مدام فردوران ، لأنه كلما أظهر سخافاتهم ، قدم الدليل على الشلل الذى أصاب ذكاء سوان حين أصابه مرض الحب !.. ونحن نتبين هنا أول أعراض الداء ، التى يمكن أن نستخرج منها قاعدة عامة لا تخيب : هى أن الرجل حين يبدأ يقول

عن امرأة ذات مؤهلات متوسطة أو وضيعة : إنها « فائقة الذكاء » ، أو « حاذقة فى الفن » ، فمعنى ذلك أنه يحس بالأعراض الأولى لمرض الحب !

• • •

● ولنعد إلى أوديت .. التى ، وقد اطمأنت الآن إلى استحواذها على قلب سوان ، كفت من جانبها عن بلورة شخصيته فى خيالها .. وشيئاً فشيئاً ، يكتشف سوان أنها فى غيبتها عن ناظره تعيش حياة غامضة ، تعمد خلالها ولا شك إلى .. خيانته !.. ويتحول الشك فى قلبه إلى غيرة .. أو بعبارة أخرى إلى فضول شديد للوقوف على أدق وأتفه حركات المحبوبة وسكناتها !.. فالحب ليس اشتياقاً إلى امتلاك الجسد بقدر ما هو شغف بامتلاك الروح والعاطفة والعقل .. ومن هنا يعمد المحب إلى محاولة التعرف على نفسية محبوبته ، ويود لو رآها منشورة بأكملها أمام ناظريه ..!

ولقد كانت حركات النساء وسكناتهن تبدو فى نظر سوان ، إلى ما قبل تلك اللحظة ، أتفه من أن تستحق الاهتمام .. وكان يعتبر ثرثرة النساء عن النساء عديمة القيمة أو الوزن !.. لكنه لم يكد يدخل فى مرحلة الحب الشاذة – مرحلة الغيرة – حتى استيقظ فضوله إلى الوقوف على أتفه حركات أوديت وسكناتها .. ولا يمضى وقت طويل حتى يكتشف الدليل على أنها تكذب عليه ، فيقول لها ناصحاً : « ألا تدركين كم تفقدين من قوة إغرائك وجاذبيتك حين



وذات ليلة ، وهو فى حفلة موسيقية ، يصغى إلى عزف الكمان ..
فيخيل إليه أن نغمًا معينًا من أنغامها يعبر عن مشاعره ..

تكذبين ؟.. حقاً إنك أقل ذكاء مما كنت أحب ..؟ » .

لكن أوديت – مثل جميع المخلوقات الشغوفة بالكذب بطبعها – تعجز عن التزام الصدق فى أقوالها .. فضلا عن أنها ، بأكاذيبها وبما تخلقه هذه الأكاذيب فى نفسية سوان من فضول دائم ، تحتفظ بسيطرتها عليه أضعافاً مضاعفة أكثر مما لو كانت صريحة معه وصادقة !.. لكن هذه الملاحظة لا تصدق على جميع الرجال ، وإنما هى تصدق على سوان وحده لأن عنده من الفراغ والوقت ما يسمح له بالتفكير اللانهائى فى أسرار أوديت ، وتمييز كذبها من صدقها !

وأخيراً يبلغ سوان مرحلة معاناة أفظع ألوان العذاب المبرح ، بسبب هذه المرأة العادية التافهة !.. ورغم إدراكه أن الناس ينظرون إلى غرامه كأمر صبيانى وجنونى ، فإنه لا يستطيع إلا أن يحس بأن هذا الغرام هو بالنسبة إليه كل شىء .. وذات ليلة ، وهو فى حفلة موسيقية ، يصغى إلى عزف الكمان .. فيخيل إليه أن نغماً معيناً من أنغامها يعبر عن مشاعره ويفهم حبه مثلما يحسه هو ويفهمه ، أى باعتباره أسمى بكثير من الحياة ذاتها ، إلى حد يجعله على استعداد للتضحية بحياته من أجل هذا الحب !

وشيئاً فشيئاً تقوى عند سوان الأدلة على خيانة أوديت له ، ورغم ذلك فإنه يظل يربط نفسه إلى مركبتها .. حتى تدركه يوماً

نوبة من نوبات الصحو والتعقل ، فيقــول لنفسه كمن يفيق من كابوس :

– كيف أنفقت سنوات طويلة من عمرى .. وتمنيت لنفسى الموت .. وخصصت بحبى الأعظم .. امرأة لا تعجبنى ، ومن غير طرازى ؟

وكأنه يقول : « إن مرض الحب يخلق فى أعماقنا صراعاً بين ذكائنا الواعى ، وبين إرادتنـا الوضـيعة .. فى لحظات التعقل والصحو النادرة نستطيع أن نرى المحبوب كما يراه غيرنا ، على حقيقته .. أما فيما عداها ، ونحن سجناء فى ذواتنا وفى عالمنا الداخلى الخاص ، فنحن نعجز على أن نراه إلا متأثرين بالشعور الذى يوحى به إلينـا .. هـل هـو جميـل ؟ أم قبيح ؟ ذكى ؟ أم غبى ؟ نبيـل ؟ أم وضيع ؟.. نحن لم نعد نعلم .. كل ما نعلم أننا فى حاجة إليه .. وهنا يكمن مرضنا ! » .

وعند ذلك تنتهى قصة غرام سوان ..

« ألبرتين »

● أما القصة الثانية من قصص « مارسيل بروست » التى تصـور أعراض وأطوار مرض الحب ، فتقع حوادثها فى « بعلبك » .. وبطلها شاب فى طور النقـاهة ، تأخـذه جدته إلى شـاطئ بعلبك ليستجم ، فيرى سرباً من الفتيات يتنزهن على « البلاج » . ويلحظ

من بينهن فتاة ذات عينين واسعتين ضاحكتين ، ووجنتين كبيرتين ناعمتين ، تلبس رداء أسود من أردية القفز فى لعبة البولو ، وتدفع إلى جوارها دراجة ، فيهتز ردفاها مع خطواتها ، وهى تصخب مع زميلاتها وتتصايح ، بألفاظ سوقية ، تلخل فى روع الفتى أنهن جميعاً خليلات فريق من محترفى سباق الدراجات .. وفى اللحظة التى تبلغ فيها السمراء الصاخبة مكانه وتمر إلى جواره ، يلمحها ترمقه بنظرة جانبية ضاحكة .. فيسائل نفسه : هل رأته ؟ وإذا كانت قد رأته فماذا يعنيها منه ؟ لا شىء بالطبع !

وحين تجـاوزه يسمعها تنطق بعبـارة فى معرض الحديث مع إحـدى زميلاتهـا عن « الاستمتاع بالحياة » .. فتصدمه تلك العبارة وتدله على أن الفتاة ليست من الطراز الذى يعجبه – كما لم تكن « أوديت » من الطراز الذى يعجب سوان ! – ولكن شيئاً فشيئاً تختفى شخصية الفتاة الحقيقية من ذهنه ، وتحل مكانها – بفعل « التبلور » – شخصية خيالية .. فإن الفتى يلحظ تردد الفتيات على الشاطئ كل حين .. وغيابهن فى بعض الأيام ، فيحاول برغمه كشف سبب ذلك الغياب ومواعيـده .. وهل يتكرر مرة كل يومين ، أو كل ثلاثة أيام ؟.. وهل الباعث عليـه انشغال الفتيات فى أمـور أخرى ، أم رداءة الطقس ؟.. وينتج عن ملاحظته الدائبة لحركاتهن وسكناتهن غير المنتظمة ، ذلك الفضول الذى هو أكثر الأجواء ملاءمة لولادة الحب !

« وإلى جانب الشك الذى كان يساورنى كل يوم فيما إذا كنت سأراهن خلاله على الشاطئ أم لا ، طرأ تساؤل آخر جدى ، أكثر خطورة ، هو : ترى هل سيقع بصرى عليهن بعد اليوم أم لا ؟!.. ذلك أنى لم أكن أعلم شيئاً عن مدة بقائهن فى البلدة ، وموعد رحيلهن ، ووجهتهن عند الرحيل : هل هى أمريكا مثلا ، أم باريس ؟.. وكان ذلك القلق من جانبى كافياً لأن يزرع فى قلبى أول بذور الحب .. » .

وشيئاً فشيئاً يتصل حبل التعارف بين الفتى وسمرائه الفاتنة .. وبعد فترة طويلة من اللهفة ، والأمل والترقب ، يظفر الفتى منها بالقبلة الأولى : « قبل أن أقبلها كنت أحيطها بغلالة من الغموض الذى أوحت به إلى تصرفاتها على الشاطئ قبل أن أعرفها .. فلما تركت بصرى يتزلق على وجنتيها الورديتين الجميلتين ، اللتين تهدلت على بشرتهما الناعمة خصلات من شعرها الأسود المتموج الرائع .. قلت لنفسى : « أخيراً سأذوق طعم ورد خديها الذى كنت أجهله .. » قلت ذلك لنفسى لأننى كنت أومن بأن هناك نوعاً من المعرفة لا تدركه غير الشفاه !.. وفيما كان فمى يقطع الرحلة القصيرة إلى وجنتى « ألبرتين » ويقترب منهما تدريجاً ، رأيت بعينى عشرة وجوه للفتاة ، وكأنها آلهة بعشرة رءوس ، كل وجه منها يترك مكانه للآخر فى مثل وميض البرق .. وملأ خياشيمى عطرها الخفيف المسكر .. ثم ، فجأة ، كفت عيناى عن أن تريا ، وانطبق

أنفى على بشرتها فلم يعد يشم . وإذ ذاك أدركت أنى أقبل وجنتى « ألبرتين ! » .

ويتبين الفتى كلما ازدادت الصلة بينه وبين الفتاة ، أن تلك التى طالما تمنى أن يعرفها . تلك الغريبة التى كانت تذرع الشاطئ ، لا تمت بصلة إلى هذه التى بذل جهد الجبابرة حتى ظفر أخيراً بالتعرف إليها .. « ومنذ اليوم الأول الذى قدمونى فيه إليها أدركت أنى أتحدث إلى مخلوقة لا تشبه فى شىء تلك التى صنعها خيالى وأنا أرقبها كل يوم على الشاطئ !.. لكنى برغم ذلك شعرت بنوع من الالتزام الخلقى يحتم على أن أحفظ وعود الهوى التى قطعتها لها فى خيالى قبل أن أعرفها . وكأنى كنت قد وكلت نائباً عنى كى يخطبها لى ، فصرت ملزماً بأن أتزوجها تنفيذاً لذلك التفويض والوكالة ! » .

. . .

● وهكذا يقبل الفتى محبوبته على علاتها ، محاولا أن ينقل إليها الصفات والمشاعر التى خلقها خياله !.. وتستبد به الغيرة عليها ، فيفرض عليها رقابة صارمة .. أنه لا يطمع فى أن يظفر بجسدها فقط ، بل بروحها أيضاً ، لأن امتلاك الجسد ليس فى نظره غير مجرد قرينة على امتلاك الروح ، والقلب — الذى هو الهدف الأكبر لكل عاشق صادق فى هواه — وهكذا يوصد الفتى على « ألبرتين » الأبواب ، ويراقبها كما يراقب السجان سجينه .. ولا يستريح باله

إلا أثناء نومها : « عندما كنت أراها ممددة على فراشى من رأسها إلى قدمها ، فى وضع طبيعى غير متكلف ، كانت تبدو أشبه بغصن طويل من الأزهار .. وفى تلك الساعات كانت قدرتى على الاستغراق فى الأحلام – التى لم تكن فى العادة تواتينى إلا فى غيبتها – تعاودنى إذ ذاك فى حضورها .. وهكذا كان نعاسها يحقق لى فرص الحب ، التى كان يتعذر تحقيقها سواء فى غيبتها أو حضورها : ففى غيبتها كنت أفكر فيها وأتخيلها وأنا وحيد ، وهى بعيدة عنى ، وعن متناول يدى . وفى حضورها كنت أتحدث أو أنصت إليها فيتعذر على التفكير .. أما أثناء نومها فلم يكن على أن أتكلم أو أصغى أو أتخيل ، أو أشعر أنها تنظر إلى .. فكان ينفسح أمامى مجال الاطمئنان .. إنها بمجرد إغماضها عينيها وفقدانها الوعى كانت تفقد جميع شخصياتها التى طالما خيبت أملى منذ عرفتها ، وتصير ملك يمينى !.. وروحها التى اعتادت أن تفر منى فى كل لحظة ونحن نتكلم ، سواء بالفكر أو بالنظرة ، كانت أثناء نومها تسكن إليها وتلازمها .. أو لعلها هى كانت تسترد إليها وتأوى فى جسدها كل حواسها التى تهيم فى الخارج أثناء يقظتها !

وهكذا كان يفرخ من روعى وهى نائمة أمام عينى وفى متناول يدى شعور قوى بأننى أملكها تماماً وأسيطر عليها .. بعكس الحال وهى مستيقظة !

« وطالما هى نائمة كنت أستطيع أن أحلم بها ، وأنظر إليها .. وألمسها وأعانقها !.. فكنت أشعر عندئذ بالحب الذى يستحوذ على القلب أمام شىء فى نقاء مناظر الطبيعة الجميلة ، وروحانيتها ، وغموضها .. شىء يذكرنى بالليالى المقمرة فى خليج بعلبك الهادئ كالبحيرة ، حيث الأغصان لا تكاد تتحرك ، وحيث يستطيع المرء حين يتمدد على الرمال أن يصغى بلا ملل إلى هدير أمواج الجزر .. » .

ولكن إذا كان النوم يعطى العاشق هدنة يستريح فيها من وساوسه ، فإنه لا يشفيه منها تماماً .. حتى الموت ذاته لا يشفيه .. فإن الصرح الضخم الذى بناه فى أعماقه ، وهو الصورة التى كونها للمحبوبة فى قلبه وخياله ، يعيش أكثر مما تعيش هى ، ويبقى طويلا حتى بعد موتها !.. وهكذا تموت « ألبرتين » ، لكنها تظل حية فى قلب عاشقها : « لكى يضع موت ألبرتين حداً لآلامى كان لا بد للصدمة التى قتلتها فى (تورين) أن تقتلها فى داخلى أنا أيضاً ، حيث لم تكن يوماً أوفر حياة منها الآن !.. ولكى أتعزى عن فقدها لم يكن على أن أنسى « ألبرتين » واحدة ، بل عديدات .. فإننى لم أكن أوطن نفسى على تحمل الحزن من أجل فقدان واحدة منهن حتى كانت تنتصب أمامى مائة « ألبرتين » غيرها ..! » .

وهكذا كانت فجيعته تتجدد وتتوالد بلا انقطاع .. حتى صوت

المصعد كان يحيي فى رأسه ذكرى زيارة المخلوقة الوحيدة التى كان يتلهف شوقاً إلى زيارتها، والتى لن تأتى مطلقاً بعد الآن، لأنها ماتت:

« .. وبرغمى. كان قلبي يقفز بين ضلوعى كلما توقف المصعد أمام الطابق الذى يقع مسكنى فيه .. فكنت أحدث نفسى ، للحظة فقط ، قائلا : « ماذا لو كان الأمر كله مجرد حلم ؟.. لعلها هى .. إنها توشك أن تضغط على زر الجرس .. » .

وتظل هذه الهواجس زمناً .. ولا غرابة ، فإن نصيباً كبيراً من الأفكار التى تكون ما نسميه بالحب ، إنما تراودنا خلال الساعات التى يكون فيها المحبوب ، وهو حى ، غائباً عنا .. ومن ثم فنحن نعتاد أن نجعل شخصاً غائباً موضوع أحلامنا .. وهكذا لا يغير الموت من الأمر شيئاً يذكر .

وأخيراً ، بعد زمن .. يبدد السلوان خيال « ألبرتين » الجاثم ، فتغيض صورتها تدريجاً .. حتى تختفى .. فلا يعود يحييها فى أعماق الفتى حيث تهجع إلا منعش قوى ، أو عطر نفاذ !.. وهكذا المخلوقات التى نحبها، لا تموت حقاً يوم يطويها الردى .. وإنما تموت يوم ننساها !

[تم الكتاب]



عزيزى القارئ ..

فى هذا الكتاب الممتع يلخص لك الكاتب العالمى أندريه موروا ـــ ويحلل بأسلوبه الرائع ـــ سبعًا من شوامخ القصص الفرنسية ، باعتبار أن كلا منها تمثل لونًا من ألوان الحب ـــ أو وجوهه ـــ المختلفة :

فنرى فيها نماذج للحب الطاهر ، والحب الفاجر !.. للحب العفيف ، والحب العنيف !.. وهكذا نقوم معه بسياحة ثقافية نتعرف خلالها على هذه الروائع القصصية الخالدة : (جوليا أو هيلويز الجديدة) تأليف جان جاك روسو .. (الأحمر والأسود) ، تأليف ستندال .. (العلاقات الخطرة) تأليف الجنرال دى لاكلو .. (مدام بوفارى) ، تأليف جوستاف فلوبير .. (الزنبقة السوداء) ، تأليف بلزاك .. (غرام سوان) تأليف مارسيل بروست .. (الأميرة دى كليف) ، تأليف مدام دى لافاييت .

حلمى مراد